h.u.s.s.a.i.n a.l.m.a.h.r.o.o.s



قَنْدَة

حسين المحروس

حسين محروس

قنـــدة

رواية

قندة / رواية

حسين المحروس/ مؤلف من البحرين

الطبعة الأولى، ٢٠٠٦

المؤسسة العربيّة للدراسات والنشر

المركز الرئيسي:

بيروت، الصنايع، بناية عيد بن سالم،

ص.ب: ٥٤٦٠ - ١١. العنوان البرقي: موكيّالي،

هاتفاكس: ٧٥١٤٣٨ / ٧٥٢٣٠٨

التوزيع في الأردن:

دار الفارس للنشر والتوزيع

عمّان: ص.ب: ٩١٥٧، هاتف: ٥٦٠٥٤٣٢، هاتفاكس: ٥٦٨٥٥٠١

E-mail: info@airpbooks.com

لوحة الغلاف:

خالد الرويعي

تصميم الغلاف:

خالد الرويعي

التنفيذ الطباعي:

مصطفى قانصوه للطباعة والتجارة / بيروت، لبنان

ISBN 9901-519-1-1

لَو ذَابْت مَا كُتِبتْ . . .

١

قُبْلةُ المَاء

في الحمـرة الأولى حضرَ جسـدي كلّه دفعةً واحـدة ، ولم أكنْ أعرفُ ما الجسد . . و ها أنتَ تجاوزتَ الثلاثين ولا تعرفُ شفتاكَ حتى عددَ النتوءاتِ حول حلمةِ ثَديِ المرأةِ الأوُلى . . تجهلُ عددَ هزّاتِ طربِ نهديها ، ولونهما لون شفتيها . . ضعيفٌ أنتَ في رياضيات الجَسد واللون . . كأيّ شاب في حيّك يعرفُ الحزنَ أكثرَ من هزة فراشات الجنس . . يشربُ ماءَ دموعه أكثر من ريقِ فتاته . . يصقلُ سيفَه ولا يصقل شفتيه . . يعرفُ الأشياء الكبيرة دائماً . . منذ أن عرفتُ جسدي أدركتُ أنّ اللذة في كلّ جزء صغير فيه . . وحده الأعمى يتحسس الأشياء الكبيرة . . . وحده الأعمى ينتظر . . . وحده الميتُ لا ينقلب .

كنْتُ كلّما أدنيتُكَ من جسدي رأيتُ آخرتَك في عينيك ، كأنّ قيامتَكَ قد جاءت ، فلا أنفرُ منك ، ولا أدعها . كأنّ طينك لم يفترْ

منذُ الحَرق الأوّل . تدخلُ في حـربٍ ، وتدخلُ في أخرى . . وتدخلُ في أخرى ، قبل أن تنتهي حروبُك السابقة . حياتُكَ حربٌ لا سلام فيها . مَنذُورونَ للحروب والدموع ، و الجسد ليس سوى ساحة قصل . كأنّك لا تسمعني . . كأنّ صوتي عورة .

لم يتعبْ أبوكَ في البحثِ عن اسم لكَ . ستكونُ عبداً لسيّد وإن كـان قتـيـلاً . وحـدها أمّك ادخـرتْ لَكَ اسـماً مُنذ الثقلِ الأوّلِ في بَطنها . سمّتكَ (عَبَّاس) ونذرتْ عُبُوَسَكَ لحربٍ ، قالت إنّها ستأتي يوم الصيحة الكُبرى . سألتَها أنتَ : متى يا أمّي؟ فقالتْ دونَ أن تنظرَ في عينيكَ :

- «كَذب الوقّاتُون يا ولدي» .

وأنتَ كما أنتَ صمتٌ مُنذ لبستَ اسمكَ لامةَ حرب ، ولم تجرؤْ على غيرِ النظر في جهة أبيك . لم تأتِ حربُك الوهم ، ولم يتغيّر اسمُك . ويوم صحوتَ رجعتَ . ومنذ ذلك اليوم وأنتَ تزور المقبرة عصر كلّ خميس . تَتَسعُ المقبرةُ ولا تتسع أنتَ . يا عباس : وحدها المقبرةُ تتّسع .

ليلةَ تشتعلُ رغبتُك لا تجد غيرَ جسدٍ تَسَجَّى في سواده لغُسله الأخير . لا تعرفُ ما تَبَقَّى منه لمسّك المُرتجى . لا شيءَ يُسْفِرُ لك ، غير ما بالغتَ أنتَ في تسفيره . تنتهي فتغتسل ثلاث مرات : مرّةً لشَكّكَ في فُتور جسدك ، ومرةً لِمسِّ الميت ، ومرّةً تتوبُ فيها من إثمك الفاتر .

تدخلُ عليها . . تخرجُ من عندها وجسدك واحد . فقدتْ مرايا عرسِكَ فضَتها . . أنتَ حضارةُ انتظار ، ووجهك في المرآة جيشٌ ، بالغَ قائدهُ في الانتظار فَانْكسر . ومَرايا عُرسكَ ترشحتْ دمَ جيشك ، لا دم غفوة فتاتك ليلة العرس . وقبلَ أن تنام تدعو الله أن تكونَ غَسيل الملائكة .

بالغتْ أمُّك في مَشموم ليلة عرسكَ ، جعلتْ فَرشة دخلتك حديقةَ مشموم . وفي الصَباح استأذنتك في الذي فَقدَ بهجةَ الرائحة منه ، كي تلقيَه تميمةً على أبعد القبور في مقبرة الحي . غسلتْ رجليك ورجلي عروسك في ماءٍ واحد ، لا يحملُ غيرَ ذاكرة الذبح . لعنتِ الذين منعوا الماءَ وهي تُمعنُ في صبّه على رجليكما . كان للماء ذاكرة الغدر ، لا ذاكرة الافتراع . لم تحتجْ أنتَ ليلتها للخيال ، مادام كلّ شيء عرفتَه من حكايات أبيك . كأنّ حواسّكَ لا تعرفُ بعضها . . حديقةُ حواسّكَ بلا ماء .

سأَخُذكَ إلى/على المـاء . .

جلستُ أنا في الجهة المقابلة منك ريثما ينتهي النادلُ الوسيم من إحضار الطعام . كلّما اقتربتُ بوجهي منكَ ارتددتَ أنتَ بظهرك الفاتر نحو جدار الغُرفة الصغيرة كأنّك تبالغُ في الغياب . يأتيكَ عطري فتشمه على استحياء ، ولا يتغيّر نَفَسُك .

ـ «هل اشتهتْ نيتُك غيرَ غفوة فتاتك مؤجلةِ الحواس؟» سألتُك وأنتَ لا تنظرُ في وجهي . . كأنَّكَ تَضيع .

فلمّا انتهى النادلُ من وضع الماء والطعام ، وتأكدتُ من أنّه الطعام كلّه شكرتُه ثمّ بالغتُ في غلقِ الستارة ، وأنتَ مُنْغلقُ الماء . لم أمدّ يدي نحو الطعام ولم تمدّها . . قمتُ من مكاني ولصقتُ جنبي في جنبك . . استشعرتُ حرارةَ الخروج فيك ، وأنّ الحياة لم تَعدْ ما عشتَه مسحوراً بما تنتظره منذ الاختفاء الثاني ، بل مَا ترويه .

ـ «هذا الماءُ وديعتي في زَهرة فَمكَ»

رأيتَني بدهشة المنتظر ، لكنّك فعلتَ ، وبالغتَ في الماء . فلّما امتلأت الزهرةُ كلّها ماءً ، ورأيتُ بعضه يَلمعُ ، يسيلُ من زاوية فمك اليسرى ، اقتربتُ منك أكثر . . أطبقتُ شفتيَّ على شفتيك الحارستين . . أطبقتُ الزهرةَ على الزهرة . . مددتُ مَيسمي ، واستردتُ وديعتي . . بدأتْ فضةُ الماء تسيلُ من زوايا فَمينا ، على الرغم من كلّ هذا الإطباق الهَضيم ، لكن الماءَ لا يسجنه أحد . . له سيرة الخروج . . له سيرةُ غير الانتظار . . عندما يسكنُ الماءُ لا يكون ماءً . الماءُ يُهلك . . يَصعقُ . . يَشحذُ أشدّ الحواس تأجيلاً . . يستنفرُ الأعضاء تأويلا . . يؤججُ مَرَايا العرس . . يُشعل المَشموم غابةً . . يُغيّرُ الأسماء . . يثقبُ أعصى الفِلزاتِ قسوةً . . يَستعجلُ المنتظرين . . يَهبُ الرمانَ أسطورةَ استدارةِ النهد . . ينتهكُ . . يعصفُ بالشكل . . يَمنحُ الضَوءَ بهجتَه ، وعينَ العاشق لمعانَ الشهوة . وعندما يسكن نأتي .

رأيتُكَ ماءً يفورُ من تنور الجَسد . . بيتاً تفتحُ مراهقةٌ فارسيةٌ

نوافذه كلّها ، بينَما عيونُ المارّة تُذْهلُ بعينيها البدويتين . . كشفتُ شعري الأسود الفارسي وأرخيتُ أزرة صدري . . قلتَ لي وأنتَ تهمّ في استباقِ جنَةِ الليل :

ـ «مَاؤكِ ليسَ كأيِّ ماء . . ماؤكِ لا يُشبهُهُ أيُّ ماء»

٢

أُلفةُ الحَمَـام

. . إلا ماءَك له طعم الغَرق ، ورائحـةُ البهـجة المؤجلة . يرثُ طيرُ الحمام بهجته ، وبَهجةُ أطفالك لا تُورّث .

لم يكنْ صـعبـاً على أخي الصـغـيـر التَّـوليفَ بين حـمـامـتين غريبتين . . لهما لونان مختلفان . . شكلان مختلفان . . حجمان غيرُ متساويين . . عمران بينهما مسافة من الريش . . جنسيتان متباينتان متباعدتان . . لا يحضر ذلك في ألفة الحمام ، ولا يحمل أخي همّه . يُدخل حمامتين في صندوق خشبي ، شبه مغلق إلا للهواء وقليلٍ من الضوء ، يسميه (مَحْكَر) يَحْكُرُهُما فيه مدة لا تزيد على يومين ، ولا تقل عن يوم . . يقول لي «خلاص . . صارا مُتَوالفين»!! فلا يلقى منّي إلا ابتسامة رضا . . يفتح المَحْكَر . . يُطلقهما أمام عَيني الفَرحتين طائرين مطوقين ببهجة الطرد ، يتبادلانه فلا يفتران ، كأنّ ريشهما مجاز لم يكتملْ . تتأنى الوليفةُ ، تنشرُ ريش جناحيها ، وذنبها ثمّ

تسحبهما بلين على الأرض . . تتشكّل له . . تمكّنه وتمنعه ، تجيبه وتصدف بوجهها ، فيدخلهما الكبرياء . . يرتفع صدره فأسمع احتكاك ريش ذنبه بالأرض ، ولا يملّ الضرب بجناحيه . . يتعاشقان . . يتداخلُ فماهما . . يتطاعمان . . يا الله وليس التقبيل -ياعبّاس- إلا للإنسان والحمام .

- «تعالَ ندخل محكراً نتوادد فيه . . يتداخل ريشك في ريشي . . نتطاعم . . لن أصدف عنك ، ولن أفتر كما فترت عروسك ليلة عرسك . . تعالَ نبتهج بالطرد»

- «لسنا حمامتين» تغضُ نظرك .

- «ولسنا صقرين بريين أيضاً»

- «ليس الحمام الأبيض إلا لخيل الظليمة الظليمة»

- «ليس التقبيل إلا للإنسان والحمام»

كنتُ أرى ألفة الحمام وبهجته ، وأنتَ تكربل كلّ حمامة بيضاء . . أنا لست حمامة كربلائية . . بيضاء نعم لكني لستُ هي . . أنا الفارسية . . أنا تلك التي طاردتها صغيراً على سطوح بيوت حيّ النعيم . . طرنا معاً على سير بيوت الحيّ سيرة سيرة . بكينا على سطح بيت العاشقة الصغيرة كلّما همّت بالعشق همّ أبوها بنتف ريشها . . وفي ليلة نمى ريشها المنتوف دفعة واحدة فلم يرها أحد . . كنتُ الحمامة . . كنتُ التي لا تأكل الشعير ، وكنت أنت بهجة لا تضاهى . . لم تعد - يا عبّاس -قادراً على أن تحبّ أكثر من مكان واحد إلاّ إذا تشاكلا ، وكنت

تُبدع أمكنتكَ دونَ تعب . ما بال الطفل في حيّك كلما كَبُرَ صَغُرَتْ بهجتُه ، وتأجّل فرحُه إلى يوم الرايات السود؟ ما باله تغادره ألفة الحمام؟ يألف الحمام الأمكنة ، وفي كلّ ريشة فيه بوصلة لجهة يعشقها؟ وأنت لا تهمّ إلا بسطحك الحرج؟ لم تعد تقفز للسطوح الأخرى . . البيوت ألوان وذاتك لون واحد . . الحمامة التي تبهجك ملطخة بدم القامة . . حمامتك للحرب لا للسلام .

– «كان لي حمامتان بيضاوان . . نذرتهما ليوم الوحشة . وفي فجر هذا اليوم ضاعفت لهما الماء والحبوب . . أكلتا أكثر من عادتهما . . اصطدتهما بعنف ، ولم أبالِ بكثرة اصطدامهما بشباك القفص المعدني . صبغتهما بلون أحمر . . بالغت في رشّهما به . . لم تعودا بيضاوين . . جريت بهما إلى حيث تُعد الخيول للنزال . . ثبّتهما إلى ظهر إحداها ، ولم أتعب في اختيار الخيل . . كلها خيول الظليمة الظليمة . لم أعرف ماذا حلّ بهما لكنني لمحت أيدي النساء –في ذلك الصباح المهيب– تمرّ عليهن بلطف وحنان ، وأيدي الرجال تصبغهما بدم القامة»

– «ماذا بقي فيك من الحَمَام» ؟

– « . . . .»

لم تُجبْ ، ولم تَنْوِ رفع رأسك . . وكان رأسُك لا يجيد إلا النظر إلى الأعلى . . إلى السطوح . . إلى فضاء الحمام . . إلى ألفة الصدر . . إلى النحر . . إلى الشفة العليا . . هدوؤك بوذي فقد تأمّلَه . . لم يبقَ فيكَ من

الحمام غيرُ ريشةٍ بيضاء على نحرك ، لا تَشعر بها ، ولا برهافة أطرافها . كانت عيناك على صدري وعيناي على الريشة . كلّما داعبتِ الريحُ الريشةَ اشتدَّ صدري إلى الأعلى حتى كادت الأزرّة تنفتق . ثمّة رغبة في صدري . . كأنّ نهديَّ مليئان ببركة الضوء . . نَهداي جناحا حمامة لا تذكر كم أَلِفتْ من قبل من حمام . . أيها النحر . . أيّها المنحور . . أيّها البوذي الوحش ، لم تعدْ غيرَ طفل يحبسُ بهجته ليلة عيد ، يُسرُّ أوّلها للوسادة ، وتاليها لغفوته . . مَنْ غيرك يزور المقابر صبيحة يوم العيد؟ يا عباس : عيدُك مقبرة .

أيّها الوحشُ غيرُ المنتظِرِ ألفة الحَمام . . أيّها المسحور بانتظار الوهم . . أدخِلْ يدك في صدري تخرج بيضاء من كلِّ انتظار . . أُمْرُرْ بها على نهرِهِ الفارسي تتراءى لك ألفة كل الحَمام . . مرّتْ شفتاك من قبل على ضفتيه واستودعت زهرتيه فيه .

إيهٍ يا عبّاس ، كلّما جئتَ في ذاكرتي سبقَكَ الماء .

أمسكتُ يديك المُعشبتين بزهرة الصدر . . وضعتهما على جناحيه ، وعيناك تلمعان ، كلّما تحسستَ جنّة الصدر ، تناسخَ الريشُ الأبيضُ الناعمُ فضةً في الفضاء :

- «تعالَ نأتلفُ بأُلفة الحمام . .»

كنتَ تنكسرُ في شعري ، وتنفتحُ لهفتك على غير الانتظار . . تنكسر . . تهذي :

_ «أعتزّ بك يا فارسية»!

٣

سِيرةُ خَاتـــُون

كانَ اسْمُهَا خَاتون . . .

بيضَاءُ تجوبُ الحيّ عصراً ، تتركُ عباءَتها السوداء للهواء والهوى . . قالتِ النساءُ إنّها وُلدِتْ في الربيع ، وليس ذلك من عادة الولادات في حيّنا ، وأنّ أمّها طالما أخفتها عن أعين الزائرات ، وأنّ بياضَها من تلك العتمة . . لم تشكُ أمّها ألماً في حملها ، ولم ترَ عُسراً في ولادتها . . وبينما كانت أمّها تلدها ، كان أبُوها يرفعُ عقيرته بالأذان على سطح منزله ، ولم يكن وقت صلاة . . كانت أذانه الرابع .

ويومَ وُلدِتْ أذهلتْ . .

تحدثتْ نساءُ الحيّ عن بياضها الحليبي ، وخصلاتِ شعرها ، وحبّةِ الخال في جنّة الوجنة اليُسرى . . قالتْ دايةُ الحيّ أمُ رسول إنّها لم ترَ مولودةً شعرُها طويلٌ إلاّ يوم وُلدتْ خاتون . سمتها أمُّها (مريم) ،

وقـال أبوها إنّه رأى في نومـه بين السَحـر ومطلع الفـجـر أنّ اسـمـهـا (خاتون) . . كانت ابنةُ التَمر ، والسَحرِ والفجر معاً . . . أمّها ربّة بيت ، لا يعرف الرجال اسمها ، وأبوها رجل صالح .

كُلّما نَمَت امتشقَ قوامُها ، وزادَ أبوها عليها من السَواد . . أعدّها لتكونَ مثله . . أبُوها مدرستُها . . كلّما انفضّ الناسُ من حوله – وقلّما يحدث ذلك – أجلسها إلى جَنبه تقرأُ عليه صفحاتٍ ممّا يختار ، وليس الشعرُ ممّا يختار .

ويومَ استوتْ عَشقت . .

دخلتْ ألفةَ الحَمَامِ فدخلتها . . كانتْ حماماتُ جارها (حسن السيد) تجوبُ الفضاء ، وليس أشهرُ من حماماته البيضاء في الحيّ كلّه . يُطلقـها مَـرتين في اليـوم : صُـبحـاً وقـبل الغـروب بسـاعـة أو سـاعتين . يتـرصدها في السمـاء فلا يكفّ عن ذلك حتى تحطّ على سطح منزله أو منارة مسجد الشيخ يوسف القريب من بيته . وربّما حطّت على سطح بيت خاتون لحظة نشرها لثيابها . تقتربُ منها خاتون فيزداد تلفتُها لكنّها لا تصدّ . . وحده الحمام يعرفُ أنّ ما بخاتون ألفةُ ما قبل العشق . يَطمئنُ (حسن السيد) على حماماته قرب خاتون ، فيغادر سطح منزل أبيه الخَشبي . سيعود ليُغلقَ بابَ القفص عليها بعد الغروب خوفاً عليها من سنانير الحيّ . وحده الحَمامُ يعرفُ ما في الإنسان من حبّ . الحبُّ حَمامٌ يسكنُ الجسد . . الحبّ

قطرات ماء على ريش الحمام ، يبقى ولا يبقى . . يضل ولا يظل . . لانعرفُ إلى أيةِ جهة يسيل . . الحبّ ماكينة الإبصار . . الحبّ جنّة الماء . . الحبّ خاتون . . كلّها الحبّ ، وغيابها لا يضرّ الحبّ شيئا . فشل المنطقيون في تعريف التعريف! إيهٍ يا عبّاس ، يعرفُ الحمامُ ما لا تعرفُ!!

إنّه وقتُ العصر في حيّ بدأ أطفاله يستنزفون كلّ ما بقي من طاقة في أجسادهم الصغيرة لاستقبال الليل . ليس من نشاط يملأ أزقة الحيّ غير نساء بدأن يغادرن الحسينيات النسائية بعباءاتهن السود يُخبئن بها نصفَ أوجههن . . وربّما تجمّع بعضهن جانباً حيث لا يحلو الإنصاتُ بقدر ما يحلو الحديث . كأنّ الوقت ليس لأحاديثهن . كأنّ النساء هنا يَشبعنَ بالصَمت مَرّات كلّ يَوم .

لم يبقَ من حيوية الحيّ إلا الدوراتُ الأخيرةُ لحمامات (حسن السيد) ، تملأنَ السماء وتَجُبنَ الفضاء . رائحةُ الخبز الفارسي اللذيذ ، وصوت استعار نار مخبزه أمران مميزان . طفلاتٌ يخرجن من بيت (أم عبد النبي) يحملنَ الحليب لصباح الغد . تمرُّ خاتون مع صديقاتها الثلاث فلا يتركن للناظرين فرصةً للمح أوجههن ، أوطلاء أظافر أقدامهن الذي غالباً ما يكون أحمر . لا تقلُّ سرعتُهن عن سرعة الحمام في فضاء الحيّ ، إلا عندما يقتربنَ من فرشة (الحاج أحمد اللبلبي) بائع الفول (الباقلا) حيث اعتاد شاب وسيم أن يقفَ ، يأكلُ (الباقلا) مرّات ومرّات منتظراً مرورهن .

– هل لفتتْ حركةُ يدها اليمنى انتباهك؟

– كانت تسترُ نفسها .(كنتَ سريعاً في جوابك)

– لا . . أقصدُ حركة عباءتها؟

– كانت تُيسّر حركة سيرها .

– لا . . كانتْ تُريه شيئاً من فستانها . . كلّما فقدتَ الحياةَ فقدتَ القدرةَ على التأويل .

تميلُ خاتون برأسها على إحدى صديقاتها . . تُسرّ لها بشيء فتعلو منهما ضحكةُ عشق . . تتصنّع سحب عباءتها كلّما مرّتْ أمام الشاب الوسيم . تنظرُ في وجهه . . يتبادلان الابتسامة ناسيين أو متناسيين عيون نساء الحيّ الشرهة للكلام ، وعيون الرجال المتغامزة تستعد لتنال من أبيها لا منها :

– ولد عبّود البقال يغازل بنت الرجل الصالح .

ويوم عَشِقتْ أتعبت . . .

أبوها الذي يسمعُ عن كلّ شيء في الحيّ . . كلّ سيرة تأتي إليه ، لم يسمع بعشق فتاته للفتى الوسيم . مَنْ يجرؤ على إخباره بألفة حمامته البيضاء؟ العشقُ في حيّكم من الذنوب الكبيرة . . لا مودة قبل الزواج هنا .

لم يكن ثمّة وسيلة اتصال في الحيّ غير الخروج في أزقته . كانت خاتون كلّما رغبت في رؤية الشاب الوسيم العَاشق مرّت بصديقاتها

يطفن الحيّ في حيوية لا تقل عن حمامات (حسن السيد) . وفي يوم رفضت إحداهن الخروج بعد أن هددها أخوها بقصّ جناحيها ، وخشيت الثانية من ذات المصير لكن من أبيها ، والثالثة أخفقت في جذب انتباه أحد . . لم تكن جميلة بما يكفي :

- «كانت خاتون في غاية الجمال ، حليبية البشرة . قلتُ لها مرّةً ولم أكررها : أنتِ جداً جميلة يا خاتون ، فقالت :» اقتربي من الحَمام تكوني جميلة «ظننتها تهذي كعادتها ، لكنّي وجدتُ في الحَمام بهجةً ليست فيما حولي من كائنات . رأيتُ ذكر الحمام لا يقتربُ من حمامته حتى يرقص ، ويغني لها ، ويبتهج ، وينحني ، ويخضع ، فلا يُنقص ذلك من فخره ، ولا من نهضة صدره شيئاً ، يفعلُ ذلك كلّ مرّة دون ملل ، أو برود ، كأنّه يَرى حمامته لأوّل مرّة . له هديل يعرفُ وقته في الفجر فلا يبخل به على حمامته . أجمل ما في هديله تدرجه فيه أمامها . . كنتُ ألحظ هذا التدرج ، يحسبه شبابُ الحيّ واحداً ولم يكن كذلك . . كأنّ هديلَه مفهومٌ خرج على الحدّ اللعين! وإذا خشي على حمامته السأم ناحَ بقربها ، أو غرّد ، أوغنّى ولم أجدْ شيئاً من ذلك فيما حولي من عرسان الحيّ! كأنّ الحمام هو الإنسان في حيّنا . قلت لخاتون : ليتني حمامة ، فقالت : «اجعلي جنّة صدرك حمامة ، ونهديك جناحين لها» ومنذ ذلك اليوم لم يسعِ الفضاء حمامتي ، لكن ضاقتْ عليّ عُيون الحيّ . . حمامة فرحة بنمو ريشها في قفص . . نهدان رائعان في صدر امرأة عاقر . . غابت خاتون . .

أليس المثابرة في الغياب عقر؟» (قالت الثالثة) .

– «صارت خاتون تخرج وحدها ، كم تمنيتُ لو كنتُ هي ، لولا أنّها صارت تهذي كلّما اقتربنا من الشاب الوسيم . كانت أقلنا أكلاً ، وأكثرنا تلفتاً إلى الحمام الطائر في عنان سماء الحيّ . سألتها ضاحكةً عن عدد الحمامات التي تجوب الفضاء ، فقالت : «عددهن بعدد مرّات الهلع المُستَفَز بين قلبي وبرق عينيه» . . لا تقوى فتاة في الحيّ على إزالة شعر وجهها قبل حفل خطبتها حتى لو تأخرت في الزواج . . ويوم الخطوبة يبدو وجه الفتاة ليس وجهها ، وتظل تستره عن أهل بيتها حتى يعتادوا عليه . . كانت الفتياتُ ينتظرن وجوههن الأخرى إلا خاتون لم يكن في وجهها إلا زغبٌ لا يُرى إلا حين تسطع عليه الشمس ، أو يبلله ماء . . كنت ألحظ الزغب أسفل شفتها السُفلى . . ليت لي . . زرتها ظهراً في غرفتها التي لا تُمَل . . كان شَعْرُها زينة . . هَمَمْتُ بإغلاق الباب فأشارت لي أن لا تفعلي . . وقبل أن تقول كلمة واحدة بكت في صمت . كانت تخنق عبرتها . . تهتز . . لم أُصبْ بشيءٍ مثل هذا من قبل ، كأنّ الحبّ سوءُ فهم طويل متبادل . . مضى ومضيتُ وليس للذاكرة غير الخيانات . . أيُّ حبّ هذا الذي فيه خاتون؟ كلّما حاولتْ وصف الشاب الوسيم ترتعش شفتاها ، يحمرّ وجهها ، ويجعل الزغب لبشرتها لونَ الحنطة . . أحضنها فأشعر ببلل العرق في ثوبها . . تهدأ . . يتوقفُ كلُّ شَيء في وجهها إلا لمعانَ العينين . . كأنّها تضيع . . لم أرها بعد ذلك» (قالت الثانية) .

- «في الخروج الأخير تمكّن الحبّ من خاتون فكان مَشيُها في الحيِّ سقيماً . كلّما نظر إليها الشاب الوسيم ، رأيتُ في عينيها حسرةً ودموعاً تجّفُ وحدها ، وفي وجهها لهفةُ حبيب على ظلّ حبيبه . كانتْ عباءتُها تنحسرُ عن شعرها فيسفر ، وتسفر دون انتباه ، فكنتُ أعيد العباءة ، أغطي شعر رأسها فلا تُدرك من ذلك شيئاً . قلتُ لها «يا مجنونة» فقالت : «رأيتُ حُلُمَ الماء» . كادتْ تقفُ فلم نسمح بحدوث ذلك . لو وقفتْ سقطتْ . أعدتُ لها القول «يا مجنونة» فقالت : «رآني حُلُمُ الماء» فلّما تجاوزنا بها جنّة الحبيب ، بَدا عليها شيء من الهدوء . . صمتت . . صار الفتى الوسيم يُصَلي ، ويستطيع لبس (دشداشة) بيضاء ظهر كلّ يوم جمعة ، ويصوم كلّ اثنين وخميس . ومثل شباب الحي المؤمن ، بدأ يُعفي لحيته إلا من تزيين ، وأخذ من شعر أطرافها . صار الشاب الوسيم العاشق المؤمن!! غدا الساحر مسحوراً . . لم نعدْ قادرين على رؤية خاتون . . تراه ولا تراه ، كأنّ بينهما ماءً لم يُكتب عليه اسم الله . . ومنذ أن جاء لخطبتها من أبيها لم نعد نرى حمامات (حسن السيد) في فضاء الحيّ . نتفَ أبوها ريشها ريشةً ريشة ، فلم تعدْ قادرة على الطيران» (قالت الأولى) .

كانت خاتون عشقاً قمرياً . .

كانت نساء الحيّ المتلفعات بالسواد يسألنَ عن حكم العشق ، بينما الرجال يفرّون إلى الحيّ المجاور جسداً جسداً . . شهوةً شهوةً . . يقفون في طوابير المتعة حيث الصداقة مع العشق لا تكون .

وفي يوم نَما ريشُ العاشقة الصغيرة خاتون دفعةً واحدة ، فلم يرها أحد . . طارتْ فطار الحمامُ معها ، وما تخلّفَ عنها تَوحَّشَ في أقفاصه ، فتوحّشَ أهل الحيّ ، ونسوا التقبيل .

– وليس التقبيل يا فارسية إلا . .

– إلا للإنسان والحمام .

٤

جَنّةُ الحَواس

يَهدأ الحَمامُ في الشتاء ، وينفشُ ريشه ليدخلَ فيه . يُكثرُ من الصمت بعينين باسمتين لكنّه لا يملّ الطرد ، والتنفّش لحمامته . ينفض ذنبه ويتكبّر ، ويستخفُّ به الطرب ، يدبُّ فيه النشاط فلا يسعُ مرحَه إلا فضاءُ الحيّ . تجرُّ عروسَك شتاءً إلى جنّتك غير الدافئة جرّاً ، ولا يفعلُ الحمام ذلك . ينقلبُ ولا تنقلبُ عروسك . أليس الحيّ ينقلب؟ كلّما ثابرت أجساد نسوتِك في التصنّم ، والغياب ، فرّ أقرانك بحواسهم المؤجلة إلى الحيّ الشرقي جسداً جسداً ، شهوةً شهوةً ، قمراً قمراً . وعندما يعبرون آخر قدم من صندوق حيّك الغائب يتألقون . . سفراء الجسد كلّهم يجتازون فلا تخذلهم حواسهم . . لا حزن عليهم اليوم ، ولا ضجر ، إنّهم آخرون . . . . إنّهم في جنّة الحواس .

يُحسِنُ الحَمامُ الاهتداء إلى أوطانه في النهار ، وقد يضلّ في ليل لا ماء فيه ، لذا لا يُسرّح (حسن السيد) حماماته إلا في ضوء .

أقرانك العائدون مثقلون متثائبون من الحيّ الشرقي يضلون بيوتهم ليلاً ونهـاراً . . لا يضلّ إلا مَنْ أُثقل ، أو خـرج فـيـه كلّ شيء على كلّ شيء . . لا يضلّ الماء مجراه إلاّ إذا فاض ، وأقرانك يضلون وليس في أجسـادهم من الشـهـوة إلا ذاكـرة طوابيـر الحيّ المجـاور . . . طريقُ الماء طريقُ الحمام ، فكيف يستدل ليلا ولم يكُ في الحيّ ماء؟ الماءُ ذخيرة لجنّة الحواس . ألم أقل لك : أنّهم آخـرون . .(زقـرتيـون) . . قـمـريون ، كلّمـا اتجـهـوا نحـو الحيّ الشـرقـي صـاروا خـفـافـاً ، لكلّ واحـد منهم سيـرتان : سيـرة للنهـار ، وسيـرة لجنّة الليل . آباء في النـهار لفتـيـة لا تَحْلُمُ ، وكائنات مائية في الليل .

كلّما تجمّعَ الحّمامُ ، والتفّ بعضُه على بعضٍ ، وضاقَ به الحيّ ، صـارَ أشـدّ طيـراناً ومـرحـاً . . كلّمـا اسـودّ الحيّ طار رجـاله إلـى الحي الشـرقي . . صـاروا (زقـرتيين) يتطاير دهن العـود من ثيـابهم النظيـفـة الجـميلة فـتـضيق بهم أزقة الحيّ . . عطور تضيع في الحيّ وليس ثمّـة عرس؟ يخرجون من قبورهم واحداً واحداً باتجاه الشرق . . لا يعرفون جهة أخرى . . كلّما غادرت الشمس مكاناً كانوا فيه .

ينتهي العشاء فيهدأ الحيُّ . تنتهي رائحة الأطعمة وصوت أواني الطبخ المعـدنيـة ، وتبـدأ رائحـة التـبغ ، تنبعـثُ من جـدران لا تحـجب الرائحة ولا تخنق الحكايات . الطرقات والأزقة مفتوحة على الكلام . تعـتمُ نسـوةٌ في البـيـوت المتـلاصـقـة القـريبـة من بيـوتهن . . الليلُ أحـاديث . . لا تتـأخـر النسـاء في عـتمـاتهن كثـيـراً ، وعندمـا يرجعن

برائحة التبغ إلى بيوتهن لن يجدن رجالهن . يخرجُ الرجالُ (الزقرتيونَ) كأنّهم في ليلة عُرس . ينظرُ بعضهم في ساعته ، ولن يفعل ذلك عند العودة . . ساعة العودة ساعة الثِقل في الجسد . . فالحمام الزاجل الذكر لا يُبلّغ رسالته إذا ما صادف حمامة . . سيأتلف بها حتماً .

تأوي النسوةُ إلى أسرَّتهن الخشبية القاسية ، المرتفعة عن الأرض الرطبة كثيراً بانتظار أعمال الفجر ، لا بانتظار أزواجهن (الزقرتيين) . ليس في الحيّ غير نواطيره التوّاقين للسَمر بصحبة شاي وأحاديث ، بينما يعود رجال الحيّ منفردين متعبين واحداً واحداً . . غالباً ما يكون الفوتوغرافي الوحيد في الحيّ أحمد العكّاس آخر العائدين ، يترنمُ بأغانٍ هندية . ربّما يسلّي نفسه ، أو يُطرب أشباح الحيّ ، الذين لا يراهم الآن سواه . يعرفُه النواطيرُ فلا يعترضون طريقه . . إنّه أحمد العكّاس ، وليس من الأشباح الذين يتركون أطفالاً رضعاً في صناديق (كراتين) موز على مشارف الحيّ ، ثمّ يغادرون ، ولا من الذين يحرقون بيوت الفقراء ؛ ليهجروها .

أيّها الكَتُوم : لماذا يعرفُ الرجال في حيّك كلّ شيء ، ولا تعرفُ النساء أيَّ شيء؟ لماذا عيون النساء هنا كلّها لون واحد؟ ليس للحبّ في حيّك غير سيرة أو سيرتين؟ والرجال لا يغنون في بيوتهم! وعندما يغنّي الأطفال تنهرهم أمهاتهم . يصمتون ، أو يحزنون .

- «كان صوتي جميلاً ، أعشق الغناء ، وأحفظ منه القليل . لم يكن ثمّة راديوهات في الحيّ ، لذا كان عليّ المشي شرقاً حيث مقاهي

المنامة العديدة . كانت «السَّحارة» سحر بهجة الصوت ، لا تفسد أحاديث الجالسين ، وتجعل للشاي مذاقاً سحرياً . جهاز صغيرغطاؤه من الخشب ، يعمل على تشغيل الأسطوانات والقلوب معاً . يعتني النادل به ، ويهمّ بتغيير إبرة التشغيل كلما احتاج إلى ذلك ، لذا يضع مجموعة إبر في جيبه بينما يهمّ بتوزيع الشاي والطلبات الأخرى . اشتريت واحدة بسعر زهيد . . لم تكن تعمل (كسَّحارة) المقهى . وعندما تعمل تضع أمي -رحمها الله- قطنا في أذنيها . كنت أحبّ الغناء ، وكلما غنيت «يا غايبين أهواكم وقلبي دايب . . . أحبابي كتار وانتو أغلى الحبايب» لوديع الصافي ، تصرخ أمي : «يا عباسوه اسكت لا تقول يا غايبين . . لا تقول ياغايبين» . . أتوقف قليلاً ثمّ أعود للغناء . تستقبل أمي نساء الحيّ عصر كلّ يوم في فناء البيت المفتوح على السماء . يتجمعن فينصبن العزاء على الإمام الحسين بن علي . . كان بيتنا مأتماً . . كنت صغيرا أجلس على سلم البيت بدشداشتي البيضاء فلا تنهرني النساء . لم يكن يفوتني من المأتم شيئٌ ، ولا من شاي الزعفران الساخن اللذيذ نقطة . . أصغي لأصوات (المُلاَّيات) وهن يرجعن في أصواتهن بالشعر الفصيح تارةً ، وبالشعر الشعبي ذي اللكنة العراقية تارة أخرى . . وهو أكثر وأطرب لأذني . . يتناوبن على الرثاء واقفات ، يتمايلن في غمرة من السواد والدموع . أصواتهن حزنٌ لهن ، بهجةٌ لي . تقفُ (المُعَلِّمة) أم الحاج مكي بوجهها الأسمر الجاد ، فتعرف النسوةُ أنّها ختام المأتم . لا أحد

يعرف اسمها ، وإذا عرفته امرأة ونادتها به لا تلتفت . وعندما ينتهي المأتم يبدأ الكلام على نية أن لا ينتهي . لا يُنهيه إلا صوتُ المؤذن البصير الحاج أحمد أبو حبيبة . يغادرن البيت فلا يبقى فيه غير رائحة دخان التبغ وشاي الزعفران ، وأصوات معركة لا تنتهي . تُرتّب أمّي فناء البيت ، استعداداً لحزن اليوم التالي . قالت لصاحبتها : ماذا نحتاج في هذه الدنيا غير سماع أم الحاج مكي؟ فترد عليها الصاحبة بآهة طويلة .

لوّنتُ عينيكَ بريش حمامة فارسية . . وضعتُك على قلبي ولا تأتي إليه؟! ضممتكَ إلى جناحيَّ الصغيرين النافرين ، فاهتاج الحمام وقَمُطَ ، وأنت غائبٌ محتبس الماء ، كأنّ صوت المعركة في أذنيك . . واغريباه . . نهرَتْكَ أمُّك عن الغياب وأنت تلتذّ به ، ولا تعرفُ جهة الحيّ الشرقي وعدد نوارس حيّك التي تحطّ فيه . نوارس للصيف والشتاء . بيوت الحيّ لون واحد في عينيك لا ألوان . أليست البيوتُ ألوانا؟! أكون لك في هيئة الماء ، فلا تجيد أن تكون لي في هيئة لونه . حمامةٌ أنا أختلُّ بالوحدة ، وأستوحش بالغربة .

أيّها الحزين : حيُّك غربةٌ ، ساعة يغادره (الزقرتيون) ليلاً إلى جنّة الحواس ، لا يلتفتون .

يسميه رجال حيّك «حيّ الأجاويد» ، ويسميه (الزقرتيون) في حيّك «الحيّ الشرقي» ، وإذا نوى أحدهم إخبار (زقرتيّ) آخر قال له مبتسماً : «الليلة بروح شرق» . ويسميه غيرهم «حيّ قِبلة» ، حيث

يكون الحيّ باتجاه قِبلتهم ، ويُسميه الجميع «حيّ الطوابير» ، وحده (الزقرت محسن) يسميه «جنّة الحَواس» .

لا أحدَ يعرف من أين جاء هذا الحيّ؟ ولا متى؟ ولا حتى كيف؟ قيل إنّ امرأة صيّرها الزمان عبدة في بيت ذلّ هربت إلى الحيّ فصيرته دفئاً للهاربين ، وأن اسمها (سمرة) ، وقيل إن زوجة شاب لا يملّ لهب الكأس إلا إذا نام ، فهربت إلى الحيّ لتصحو ، وإنّ اسمها (مريم) ، وقيل إنّ مستعمرين تاقوا لحي (سوهو) فاسسوا شبيهه ، ليَسهون فيه .

وقيل إنّ عاشقة من تلك الأرض طارت بحبّها خوفاً من أن ينتف أهلها في تلك البلد قوادمه ، حطّت في هذا الحيّ فأشعلت جنّة القلوب فيه جنّةً للحواس ، وأنّها قليلة الاختيال ، صفية البصر ، قليلة التلفت ، ذات سمو ، وأن اسمها (حمامة) .

- تُشبه حمام (حسن السيد) يافارسية؟

- لا يا عباس . . حمام (حسن السيد) يُشبهها .

- تُشبه خاتون إذن؟!

- لا . . لكلّ حمامة هيبتها . . لكلّ حمامة اختيالها . . لكلّ حمامة طقوس في الهرب .

لا يَعرفُ أسماء النساء هناك إلا النساء . . لا أحدَ يرى وجوههن ، وليس للأسماء وجوه . كلّ شيء فيهن مغطىً بالسواد حتى الصوت . لم تعدْ أصوات النساء ناعمة . . خرجت على طبيعتها . . كانت في حيّ لا يحيا فيه ظلّ امرأة . صوت المرأة عورة . .

صـورة المرأة عـورة . .اسم المرأة عـورة . . لـم أسـمع فـيـه سـيـرة حبّ مكتملة .

كأنّ الحبّ نيةُ القَصَل . . .

سير الحبّ مخنوقة ، أبطالها أشباح ، وملامح وجوه . ويوم تختل امرأة ، وتجهرُ بحبّها ، يهبها الناس اسماً ، وموتاً في آن . . صار اسمها (حمامة) تترقب نتف ريشها كلّ صباح .

وفي يوم طارتْ خفيةً إلى جهة قيل إنّ المحبين فيها لا يموتون . ليستْ المرّة الأولى التي يُصبح ناس الحيّ فلا يجدون غير ما بقي منها من سواد . طارتْ على نيّة غير الرجوع . وليس كلّ حمامة تقوى على الرجعة من حيث أُرسِلتْ . كانتْ الحمامةُ الزاجلُ الوحيدةُ التي تحملُ رسالةً غير مكتوبة . . سيرتُها رسالتُها . . لم تعدْ تذكرُ من اسمها السابق حرفاً . . هي (حمامة) . .

صار لاسمها وجه . . .

ويوم حطّتْ في جنّة الحواس ، نَما لها ريشٌ آخر ، ليّنٌ في غير رقّة . طالتْ قوادمُها في غير إفراط ، وتداخلَ ريشها ، ولحقَ بعضُه ببعضٍ . قَصُرَ ريشُ ذيلها دون نتفٍ ووهن . قلّ اختيالها ، وصفا بصرها ، وثَبُتَ نظرها ، وندر تلفتها ، ولم يبقَ من فزعها شيء .

حطّتْ على كلّ البيوت . . سطحاً سطحاً . . كانت تترك ريشة على كلّ بيت . فلما استعصى صيدها جاء (ولد صفية) . . طار معها على كلّ البيوت . شاركها في الكشف فلما خلتِ السطوحُ من

الدهشة ، وعشق (ولد صفية) حضارة الانتظار ، والفرح المؤجّل ، ولمْ يتبقَ من ريشه الكثير ، وجدها بصحبة كل الحمام الهارب على سطح بيته .

ومَنْ لا يعرفُ (حمامة) في الحيّ الشرقي؟ ومَنْ لا يعرفُ خفّة نهوضها لحظة الطيران ، ودفء جناحيها إذا ضمتهما ، وجنون هِزتهما إن ضربتْ بهما زهرة الشفتين؟

أيّها الحزين : يستأنسُ وحشي الحمام ، وعروسك وحشة مؤجلة الأُنس .

٥

ألوانُ البَزّاز

أيّها الفاتر : تعلّمتَ الكتابة ، وأنتَ لا تعرفُ مسّ قلب عروسك؟ نِساء حيّك أبكارٌ في الحبّ ، وللفتيان قلوبٌ تغضّ أبصارها خشية إثم الذين عشقوا من قبل . ما الذي تكتبه وأنتَ تبتغي السِتر ، وتحجمُ عن المغامرة؟ كلّما بالغتَ في السِتر ، انكشفَ خَوفُك . . كلّما أحجمتَ عن دخولِ مغامرة فَقَدَ هرمونُ الدهشة بريقَ عين الطفل في عينيك . ليس ثمّةَ جديد في ماء عينيكَ ، وللحَمِام عينٌ في كلّ لفتة . تسري إليك الوحشةُ كلّ مساء والكتابةُ لا تسعفك ، وعروسك لا تعرفُ ما بِكَ ، وغيرُ عابئة بما تكتب . توسّدْ جُمَلك الميتة ، توسّدْ عروسك معها ، وناموا معاً . لا . . ليست لديك مشكلة في الكتابة ، لكنّك مثلُ أقرانك يُتقنون الكتابة ، ولا يُتقنون الاتصال بالكون والحياة . يكتبون بلا جهة .

ماذا تفعل في كتابةٍ ليس فيها منك غير تصنّعك الفوتوغرافي

الأخير؟ كأنّك في صورتك لستَ أنت ، وفي نصّك مكتمل الفحولة . تبدو في الصورة تفهم كلّ شيء ، وتعرفُ . تمسكُ قلماً في يدك اليمنى ، تشير به إلى ما بين أذنك وعينك اليمنى . تحاولُ عبثاً تسريب ابتسامة جادةٍ تُوحي بعلم غَمِيق ، ومن خلفك بدتْ مجموعةُ كتبٍ مصفوفة جلدها لامع ، ليست واضحة العناوين ، عَجِزَ الفوتوغرافي المخدوع عن توضيحها وصورتك في آنٍ . كأنّكما لاتحضران معاً . إمّا أنتَ ، وإمّا هي . هل كنتَ آفة كتب؟

بالغ الفوتوغرافي الحقير بوضع مسحةٍ ناعمة على صورة وجهك ، فبدا غابةً من العاطفة تكفي لكلّ النساء العاشقات سراً في حيّك ، وما فاض منه لحَمام (حسن السيد) . هل هذا أنتَ؟ هل هذه صورتُك في الجريدة الملعونة؟ تفرّستُ في وجهك كلّه ، استحضرتُ كلّ فنون بلاد الفُرس عبثاً . . لاً تقرّ نفسي بأنّه أنتَ . هذا الشيء في الجريدة لا شيء فيه منك . صورةُ دولة في جرائدها . ها أنتَ أمامي صورة بين الصنعة ، والمكابدة ، وخلفهما النظر . كأنّك ميتٌ يعود ، وكأنّ الدخول إلى صورتك مغامرة فَقْد . صورةٌ لا علاقة لها بمرجعها . صورتك لا تثير فِيَّ غير اهتمام عام . . صورة لا وخز فيها ، ولا أستطيع أن أختزلها ، وأختزنها في ذاكرتي . عندما شاهدتها لم تنقطع قراءتي ، لكن كذب الفوتوغرافي أبهرني . أين وجهك في صورتك؟ صورتك مسطّحة ، لم يستطع المصوّر النفخ فيها فماتت . أيّ محنةٍ تلك أن أنظرَ إليك فلا أراك ، وهذا الفوتوغرافي الملعون صَيّر صورة وجهكَ منجمَ

حبّ ، كلّما مستهُ نيّةُ النساء تَبرعَمَ عِشقاً . لم يكن الفُوتوغرافي الكذّاب يرى فيكَ ما يراه البصير (إبراهيم البزّاز) .

كان إبراهيم البزّاز يرى بيديه ، يضعهما على الجدار الفاصل بين باب بيته ، والباب الخشبي لدكانه . اليدانِ مصدرُ معرفةٍ قلّما يخطئ . . بهدوء يشبه هدوء الحيّ عندما يغادره الرجال صباحاً إلى أعمالهم ، يتحسّس الجدار بحثاً عن مزلاج باب الدكان ذي اللون الأخضر ، يُتمتم بكلماتٍ وأدعية . . الرزقُ في التبكير . . يُمسك القفل النحاسي الكبير بيد ، بينما تندسُ يدُه الأخرى في جيب ثوبه الأبيض ، تبحثُ عن شيء ، ستجده سريعاً ، ولن تضلّه أبداً . يُخْرِجُ قطعةَ قماشٍ طويلة ، رُبط في آخرها مفتاح فضي . يفتحُ البزاز مصراعي باب الدكان في سكينة فتبدو طاقات(طيّات) القماش النسائي مرتبةً في أوضاع مختلفة ، عمودية ، وأفقية ، ومائلة ، بألوان زاهية . لكلِّ نوع قماش مكانه الذي لا يغادره حتى يُوقف المصنعُ إنتاجه . في مقدّمة الدكان (فَرْشَة) من الخَشب يعرضُ عليها البزاز كلّ ما تختاره النساء من قماش ، وتمنعُ الراغبات في الدخول إلى الدكان . يتحسّس إبراهيم البزاز فرشة العرض . . ما الذي بقي عليها من عصر يوم أمس من قماش ، وألوان ، وحكايات؟

لدكان إبراهيم البزّاز باب شبه ضيّق داخل بيته ، يظلّ مفتوحاً دائماً على الدكان والبيت معاً ، تسمع منه زوجته وأهل بيته الطيبون أصوات نساء الحيّ ، الواقفات أمام الفرشة . هل كانت زوجته تعرف

النساء من أصواتهن؟

يبدأ البزاز يومه بترتيب طاقات القماش واحدة تلو الأخرى . يتأكد من إسناد بعضها ، يعيدُ طيّ بعضها من جديد . وإذا ما انتهى جلس ينتظر وقت الضحى حيث تبدأ نسوة الحيّ بالمجيء إليه متسربلات بالسواد .

قلّما تجد امرأةً واحدةً واقفة أمام فرشة دكان البزاز . النساءُ في هذا الحيّ أحاديث ، واجتماعهن أمام الفرشة متعة الكلام . ليس ثمّة نظام في أحاديثهن ، يُطلقن الكلام على الكلام ، فلا تعرفُ مَنْ يخاطب مَنْ ، ومَنْ تَسْمَع . تخشى النساءُ أن يرجعن إلى بيوتهن فلا يصغي إليهن أحد . عند دكان البزاز تبيعُ النساء الكلام ، والخواطر ، ويشترين قطعة قماش . قماشُ البزاز ألوان ، وأحاديثهن ألوانٌ وألوانٌ . كم يحفظ البزاز من أحاديثهن؟ وكم يعرف من سيرهن ، وسير رجالهن؟ وأحاديثهن الكيدية ، وفضائح أخريات . كان البزاز أوّل مَنْ عرف سيرة خاتون من الرجال . أيها الثقيل : نساءُ الحيّ أحاديثُ .

يقفُ البزاز لتحيتهن بابتسامة هادئة جداً ، ولا يجلس حتى يغادرن الفرشة . يسألنه عن حاله وصحته وعن زوجته وعياله . كلّ امرأة تفعل ذلك ولا ينزعج ، ويرد عليهن واحدةً واحدةً . . لا يعرف أسماءهن لكنّه يحفظ أصواتهن . عندما تختار امرأة قماشاً تصفه له ، فيضع يده عليه قبل أن ينتهي وصفها . تساومه النسوة في السعر فيرضى بسعرهن الأخير بابتسامة . . لا يرضى لأي امرأة أن تعود

خائبة . .

- «كم (وَار) تريدين؟» (ينشر القماش على الفرشة)

- «عطني ثلاثة (وارات) . . لا . .استغفر الله أربعة (وارات) وذراع» (تبرر المرأة للواقفات تغيير القياس)

يضع مقياساً من الحديد على القماش . . إنّه الياردة . . أي ثلاثة أذرع ، وتسميه نساء الحي بـ(الوار) . وما إن ينتهي البزاز من قطع القماش حتى تفكّ المرأة عقدة في آخر (مِشْمَرها) ، تُخرج منها نقوداً بالكاد تغطي التكلفة . وقد تسدد بعض النسوة ما عليهن من نقود لاحقاً لزوجة البزاز الطيبة ، فتدعو لوالديهن بالصحة ، أو المغفرة

- «رحم الله والديكم» .

عند البزاز البصير لا تغطي النساء وجوههن ، بينما تصرّ نسوة على ستر الفم بعباءتهن لحظة الكلام . ويعللن ذلك للنساء الأخريات : «إن كان لا يرانا فنحن نراه» . وعندما يمسكن القماش بأيديهن ، يقبضن على أطراف عباءاتهن بأسنانهن .

- «جئتُ إلى إبراهيم البزّاز ذات صباح قبل موعد مجيئ النساء . سلّمتُ عليه فعرفني وابتسم . سأل عن أبي الذي كان يجمعه معه تجارة الأثاث . كان البزّاز نجاراً . جلستُ على أطراف الفرشة صامتاً ، فقال :

- «الألوانُ صامتة لكنّ الناظر فيها لا يسكنُ»

ابتسمت ، وقلتُ في نفسي : هل يرى هذا البصير الألوان؟ قام

من مكانه ، فتح طاقة قماش على الفرشة ، فصار طرف منه على فخذي حتى غطى ركبتي ، قال :

- «هل لاحظتَ يا عبّاس؟ . . تأتي نسوةُ الحيّ كلّ ضحى ، فأفرش لهنّ القماش ألواناً على هذه الفرشة . . ثمَّ (يضحك خفيفاً) أصغي لأصوات دهشتهن . . أسمع أحاديثهن عن القماش واللون معاً . . هكذا أعرفُ اللون . . يا عباس أنا أسمع اللون . . أنا أسمع وطأة اللون! تشتري النساء الأسود كثيراً ، ولا يتحدثن عن لونه ، وعندما أفرش لهنَّ الأخضر يتنهدن ، ويهللن ، ويصلين على محمد وآل محمد . . الأزرق . . لا . . الأزرق لا تشتريه النساء هنا . . قبل سنتين اشترت فتاة قماشاً أزرق ، وصفتُ صوتها لزوجتي فقالت ابنتي : إنّ اسمها (خاتون) . . كانت النساء تقول : «اللون الأزرق لون إبليس الملعون» الألوانُ أصواتٌ يا عباس . . تسأل النساء عن اللون لا عن القماش» .

فلمّا وقفتُ وهممتُ بمغادرة الفرشة دون كلام قال لي مبتسماً ، ووجهه في جهة لستُ فيها :

- «للونِ ألوانٌ ، وللنفسِ أنفسٌ بعددها ، فلا تحزنْ» .

ها أنت ياعباس ، وها هي نساءُ حيّك . يسمع البزاز الألوان وأنت لا تراها . الأزرق ليس في جهتك ، وذاكرتك ليستْ قمرية . . يا عبّاس : جسدُ المرأة ألوان وجسد الفارسية أقمار . هاتِ يدك ، ضعها على جسدي وتحسّس ألوانه الغَميقة . . مرّرها على أزرق جسدي

تشتعل الألوان فيك أقماراً فارسية . لماذا كلّ هذه الزرقة في البحر والسماء وسرير عروسك لا لون له . تلعنها قبل أن تنام ، وتلعنك قبل أن تستيقظ ، والأزرق خامل في زوايا الرغبة المؤجلة .

– «كلّ ما فيه ماء أزرق . . كلّ أزرق قمر» (وضعتُ يدي برفق على خدّك)

– «القمر ليس أزرق» (تضع فمك على يدي)

– «لا تحزن ياعباس . . للون ألوانٌ والقمر الفارسي لا يناله المُحَاق ، ومنازله القلب» (وضعتُ يدي الأخرى على خدك الأيسر)

وضعتُك في الأزرق وأنتَ تنتظر طمئنينتك القديمة . .

جسدٌ فستقيٌّ ينتظر ألوانه .

٦

بَيْتُ المَاء والقَمر

كأنّ أمّه ولدته تائهاً في البحر ، يلاحقُ أمواجَه الصغيرةَ كلّ فجرٍ ، ويخبرُ أصدقاءه الصغار أنّه يشاهد موجةً بنفسجيةً كلّ صباح فلا يصدقه أحد .

– «محسنو . . يمكن شفت بطيخة خضرة» قال أحدهم ، فضحك الصغار .

– «لا . . أنا أعرف لون البطيخ مو أعمى» قال محسن .

_ «ولا مرّة شفنا هالموجة البنفسجية ، وعيوننا مثل عيونك» قال آخر .

– «كانت تطلع وتروح بسرعة» قال محسن .

– «يمكن لون زيت السفن واللنجات . . ترى في الزيت لون بنفسجي» قال أكبرهم .

صاح أحدهم «شوفوا شوفوا بطيخة كبيرة جايّه» ، فتصايحوا

فرحين ، وهجموا على الماء يراودونه بأجسادهم الصغيرة السمراء نحو البطيخة الخضراء . إنّه يوم مُميز إذا كانت البطيخة صحيحة سليمة . يخرجها كبيرهم والماء يسيل على وجهه ، يدخل بعضه في فمه فيتفله بقوة ، مبيناً تعبه وشجاعته . لا يتكلم ، يتّجه بها نحو رمل الساحل ، فيلتصق بنطاله الأسود بجسده ، وقد ابيضت قدماه من الماء ، وتعرج جلد أصابعهما .

– «محسنو تعال . . صِدنا موجة بنفسجية لكن شكلها بطيخة خضره» قال جار محسن ذلك وتضاحكوا .

أنزل كبيرهم البطيخةَ على رمل الساحل بهدوء ، وجثا الجميع على ركبهم ، متحلقين حوله . أخرج سكينةً صغيرة شقّ بها البطيخة طولياً :

- «الله . .حمره . . حمره» صاح الجميع .

– «يعني مو بنفسجية» ضحكوا ، وهم ينظرون إلى محسن ، بينما كان يحاول أن يبلع ريقه ، ويعالج الموقف بالمشاركة في حفل بطيخة سقطت من سفينة شحنٍ خشبية ، مثلما يحدث كلّ يوم .

– «لاف الهوري . .الهوري لاف»

وقف أحدهم يصرخ فوقف الجميع ، وأيديهم الصغيرة ملطخة بحمرة البطيخ . يحدث كلّ فترة ، أن «تلوف» سفينة ، أو قارب ، أو «هوري» كما يسميه البحارة هنا . وهم لا يقولون ذلك إلا إذا انقطع حبل القارب أو السفينة ، أو انحلّ من رباطه ، وصار القارب يسبح

وحـده دون ربّان ، أو قـائد . عندها يقـولون إنّه «يَلوف» ، والسـفـينة «لافَتْ» و «تَلُوف» . عندما يحدث ذلك يتـمنّى الصغار أن يقترب القاربُ ، الذي «لافَ» من الساحل ليركبوا فيه ، فلا يشعرون بجناية استخدامه . لقد «لافَ» وحده ، وباختياره . أحيانا لا يقترب من الساحل ، وتظلُّ حركته تحت توجيه احتمالات الصغار . ينعزل محسن عن رفاق البحر قليلاً ، يراقب القارب «اللايِف» بمتعة وشرود بينما القارب يترنح فوق الماء ، وليس ثمّة شكل ، ولا اتجاه لحركته . كأنّ القارب ثمل . . كأنّ به خاتون .

ها هو القارب يهذي على الماء ، جنّة الهذيان . لا معنى لأيّة جهة في هيكل القارب . تُصبح مُقدمته مؤخرة ، ويُصبح جَنبه مقدّمة . يَدور ويتقدّم في الدوران ذاته فلا يشعر محسنُ بأنّ القارب ينظر إليه في وجهه إلا عندما تكون مقدمته باتجاهه . يصطدم بقارب آخر في هدوءٍ فلا يكاد يسمع أحد صوت الاصطدام . يتلاصق القاربان ، يتحسّس كلُّ واحدٍ منهما ألواح الآخر ، ثمّ ينسحب القارب «اللايف» على مهل منتشٍ بالمسّ ، وتزداد سرعته عندما يبتعد عن القارب المثبّت ، الذي يظلّ مضطرباً حيناً . كانت حركة الشاب الوسيم تهدأ كلّما اقترب من خاتون ، وتكاد تسكن ، فإذا ما تجاوز جسدها وخفّ التنمُّلُ في وجهه ، وهدأت الحرقةُ أسفل الصدر ، ولم يعد يشمّ رائحتها ، عادتِ الحيوية لحركته .

كلما تحرّك القارب في الماء لازمه محسن على الساحل . يجري

معه . كأنّهما اتفقا على الحركة ، وعلى الهذيان ، وعلى أن يكون كلّ واحد منهما «لايفاً» . لم يكتفِ محسنُ بذلك بل صار يدور على الرمل كلّما دار القارب في البحر . يمرّ على الصيادين الصغار على الساحل يضحكهم جريُهُ ، فلا يعبأ بضحكهم . كأنّ الساحلَ لا ينتهي ، ومحسنَ لا يتعب ، والقاربَ لا يتوقّف ، مثل البحث عن زهرة في الطريق المالح ، أو بسمة على شفتي خاتون في أيامها الأخيرة ، أو بقايا الزعفران على خدّ شامة القمر .

كان محسن يُحسنُ محادثة القوارب التي «تلوف» ، يعرفُ مبتغاها باتساع البحر . كان الماء بيته . بيتٌ نوافذه لا تغلق ، وأبوابه من ماء .

صار يَتَّبعُ القاربَ في جنون ، وقبل أن يبدأ الساحل في الانحناء يميناً كان القاربُ قد دخل في بحرٍ واسع جداً مبتعداً عن الساحل . توقّفت قدما محسن ولم تتوقفْ عيناه . انحنى لفرطِ التعب ، بينما القارب يلتذّ بهذا الاتساع الحرّ . صار القاربُ صغيراً . عاد محسنُ إلى أصدقائه تعباً ، واضعاً يديه على خاصرتيه . فلمّا اقتربَ منهم وجدَ عندهم بطيخةً أخرى . قال أحدهم :

- «وصلْ أبو الموجة البنفسجية يتطعطع» ضحك الجميعُ ، فضحك محسن معهم ، ثمّ التفت جِهة القارب فلم يرَه . حمل نعليه وسار متثاقلاً باتجاه البيت وهو يفكر في تبرير كلّ هذا الغياب لأبيه ، ومن بعده لزوجة أبيه . دخل ميضأة مسجد الحيّ ، يغسل ملح البحر عن

وجهه ، والتراب عن قدميه الجسورتين . قد يُخفف ذلك من العقوبة .

صبيٌّ أسمرٌ ، يافعٌ ، كلّما عاقبه أبوه ، زاد تعلّقه بماء وهب جسده شهوة المغامرة ، ونشوة التقصّي . يضربه أبوه ثلاث مرات : مرّة على الغياب ، ومرةً ثانية على إهماله في حقّ الدكان ، ومرّة ثالثة على خرافات الماء .

***

أمس المَسيّة رحنا قهوة الفـــــارة
كلنه سَكاره كلنه مَكـــــــــاره
صبْ لي استكانة شاي ولّع لي سيجارة

تتعالى الضَحكاتُ مُمَهدةً لانتهاءِ الأنشودة اليومية لرواد مقهى الفارة في الحيّ الشرقي ، لكن دخان السجائر الكثيف ، وحيويّةُ النادلِ لا يتوقفان حتى مغادرة آخر المرتادين . عبر بابي المقهى يدخل القمرُ ممتطياً دخان السجائر ، تداعبُ أشعتُه المرتادين ، فيستقبلون زرقته التي تحيي همما قصمها قليل من النهار ، وكثير من أسوار الحيّ . قمريون يتعاقبُ عليهم القمر ويتعاقبون عليه . وحين ينتشي الفرد منهم يسمونه هلالاً ، وتحلّه ألوهة قمرية إيزيسيَّة . هنا في مقهى الفارة تستطيع أن تكون حزيناً ، ومنتظِراً ، ومُرتَجياً فرحاً لكنّك ستكون وحدك . (الزقرتيون) في هذا المقهى إلى القمر يصوبون خواطرهم فيمتزجون . .

يتنافذون . .

هنا بيت القمر . . .

يهبطُ القمرُ في (استكانة) الشاي الفارسي ، فلا يغفوُ الذي يَشربُهُ ، ولا يملّ صفرةَ زعفرانه . يمرّ النادلُ مبتهجاً بصينية الشَاي فتتخطَفُه الأيدي ، ويترنَّمُ عجوزٌ أسكرَه الشايُ :

خدري الشاي خدريه . . خدري الشاي خدريه . .
عيوني لَمَنْ أخدره . . بويه لَمَنْ أخـــــدره .
مالـج يا بعد الروح . . دوم امكــــــدره
بعد هواي يا ناس إلمن آنه أصبــــه
محد بعد عيناه يستاهل يشربــــه
أحلف ما أخدره ولا أقعد اقبالـــــه
إلا يجي المحبوب واتهنه بجمالــــه
خدري الشاي خدريه . . . .

فلا ينتهي الشاي قبل انتهاء غنائه ، كأنّه يشربهما معاً ، وقبلهما القمر . يبتهجُ (الزقرتيون) المحيطون به ، فيعبِّرون له عن بهجتهم :

– الله . . الله . . . جيب شاي يا عبد الصمد . . جيب . .

يترحّمون على المغنية العراقية (سليمة مراد) ، وعلى صوتها الفراتي ، بينما يقصّ أحدهم شيئا من حياتها مع زوجها (ناظم الغزالي) ، وكيف تلاقيا ببغداد سنة ١٩٥٢ فتعاشقا ، وكيف فُجِعَتْ

به في سرد درامي قريب من الأفلام الهندية التي تزين صور بطلاتها المغنيات جدران المقهى . وقبل أن يُعلن السارد انتهاء سرده ، يصيح الجميع : خدري الشاي خدريه . . يهزّ أحدهم جسده . . فيأتي النادل عبد الصمد بصينية الشاي قبل أن يُطلب . . يعرفُ أمزجة الجميع . هنا لكلّ واحد شايه .

هنا نشأ (الزقرت) محسن بإيماءة من القمر . . . ولد نصفُه الأعلى في بحر حيّك يا عباس ، ونصفه الأسفل في جنّة الحواس . . . ويوم استوى ولد مرّة أخرى في جنّة الحواس . يُولد المرءُ أكثر من مرّة ، في أكثر من مكان :

- «بقالةٌ متهالكةٌ ، ودرسٌ في الأخلاق ، وآثارُ ضربٍ على ظهري لاقترافي مسّ الماء ، وأرملة بحرانية لم يرها أحد في غير سواد ، وحدبة يسيرة أعلى ظهري ، يزيد بروزها لحظة التعب ، هذا كلّ ما ورّثه لي أبي . ها . . نسيت أنّه هو الذي سماني (محسن) . لم يخترع الاسم فقد كان لأحد أجداده . في حيّنا لا يتحيّر أبٌ في اختيار اسم لوليده المرتجى ، ففي المعركة الكبرى أسماء تطلّ بدمها ودمعها كلّ حين ، لها الوقت والمكان كلّه . ويوم بلغتُ الحلم قال لي : «أنتَ الحين رجَّال يا محسن» .

لم أعِ حينها كلمة (رجَّال) ، فلم أرَ في البيت أيّ مظاهر للمكان الذي يجتمع فيه أنثى وذكر . . أقصد المظاهر الطبيعية لجسدين الأول لرجل ، والثاني : قيل إنّه لامرأة ، هي زوجة أبي . صار لي جسدٌ

سيرتُه مَنقوصة ، تكاد تغفوُ الشهوةُ فيه فآثرَ أن لا يكون لطلعه رائحة الرغبة . ويوم ماتَ أبي لم يرَ أحدٌ أيّ مظاهر لرحيله على زوجته ، فليس ثمّة لونٍ أسود غير الذي تلبسه منذ جاء بها أبي ، مثل امرأة فقدت زوجها- في حينا - في شهري محرم ، أو صفر .

ظَلتْ زوجةُ أبي صامتةً بعد أبي ، لم يسمع أحد صوتها إلا في صلاة . وعلى الرغم من أنّها لم تعد تطبخ ، إلا أنّها لم تستطع إنهاء علاقتها بما بقي من أواني طبخ يسيرة ، أسفلها -من الخارج- سواد عظيم . تبالغُ زوجة أبي في تحريك الأواني فتصدر أصواتاً كأنّها تشغل المكان بما بقي من ذكرى أبي ، أو ربّما تطرد تلك الشياطين التي تؤذيها أصوات الأواني . تفعلُ ذلك - في اليوم الواحد -مرّات حتى توقفتْ أصواتُ الأواني تماماً ، وصرتُ وحيداً في بيتٍ خربٍ مَكتوم ، لا أشمّ فيه غير رائحة جسدي ، ولا أرى فيه غير بقايا سواد زوجة أبي . يستهزئ بعض رجال الحيّ ، فينعتونني بالـ (يتيم)!! بينما نصحني آخرون بالزواج لأُنْهِيَ وحشة البيت ، ولأُكْملَ نصفَ ديني . . ديني منقوص الآن . . أين يا ترى يذهب النصف الآخر؟! الرجال في حيّنا يحفظون كلّ ما يحرّض على الزواج من آيات ، وأحاديث ، وأقوال ، وروايات ، وقصص . قال لي أحدهم إنّه جاء في الأحاديث أن الأرض تشتكي من بولة الأعزب ، ومَنْ ينام وحده ينام قرين الشيطان ، ووووو غيرها الكثير الكثير . . لكنّ أحداً لا يسأل هنا عمّا إذا اشتعلت الرغبة في داخلي أم لا؟ و لا يقترب من عينيك ليطّلعَ على ذلك . هنا- في

حيّنا– يُوضع الشخصُ في التجربة مباشرةً حتى المجانين .

الدكـان يصلُني بأهل الحيّ على الرغم من قلة البـضـائع فيـه : صابون بودرة ، صابون سووف ، ليف معدني ، مبيض الثياب ، علب صلصة ، علب سجائر ثلاثة أنواع ، گاز (كيروسين) ، فحم ، حلويات إيرانية معلبة في أكياس من النايلون ، حفاظات نساء . .ههههه . . من نوع (كـوتكس) ، مـحـارم ورق (كلينكس) ، عـسل التـمـر (دبس) عراقي ، حب رقي(حب البطيخ) مملح ، وحب شمسي(عباد الشمس) مـقلي ، وسنبل (فـول سـوداني) مـقلي في الرمل الحـار ، زجـاجـات بيبسي وكندادراي مثلجات في النهار فقط ، ونخج (حمص) ، وباقلا (فـول) مطبـوخـان في العـصر فـقط ، وثمّـة أشـيـاء أخـرى قليلة لا تملأ رفوف دكان أبي . . دكاني الصغير .

هنا لا أحـد يشـتـري الحليب المجـفف ، مـادام حليب بقـرات أم عبدالنبي لا ينقطع ، ولا يملُّ أحـد بياضـه . . يسـمـونه بيت الحليبـة . ويسـمـون ابنتـها مـريم– في الحيّ – بنت الحليبة ؛ لبـياضـها المبـالغ في إخـفـائه . أرسلتني زوجـة أبي مـرّة لأخـذ الحليب من أم عـبـد النبي . حاولت أن أرفع قدميّ قليلاً ؛ لأرى ماذا تفعل في الحليب فزجـرتني ، ولـم تتوقف عن بيان امتعاضـها للنسـاء المنتظرات ، حتى غادرتُ بيتها دون رجعة!!

كـانت بِنت الحليبـة تأتي عـصر كلّ يوم ، تـدخل على زوجـة أبي دون استئذان – كعادة النساء في حيّنا – تلقي التحية حتى لو لـم يردّ

أحد عليها ، فتحية النساء هنا للتنبيه أكثر منها لإلقاء السلام . تقترب من زوجة أبي ، تضع الحليب وتغادر . فلمّا ماتت زوجةُ أبي صارت تضعُ الحليبَ على الجانب الداخلي لبوابة الدكان ، تغادر دون أن تهمسَ بكلمة واحدة . وفي يوم انسكب حليبها على الأرض فأحسستُ بما يُشبه حرارة في الوجه لا تنتهي ، وألم أسفل السرّة .

تخبطّتُ قليلاً في تسيير أمور الدكان ، صار عبئاً مقيتاً . أكون في السوق كلّ يومين من أجله . رحم الله أبي ، كان يفعل كلّ شيء تقريباً . أضحتْ مهماتُه مهماتي .

تقع السوقُ شرق الحيّ ، ولها – من حينا– أربعة طرق : في الأسفل بمحاذاة البحر ، وفي الوسط ، وطريقان أعلى الحيّ ، يتعفف بعض الرجال السير فيهما ، ويتخوّف آخرون سلكهما بالنهار . لم أرَ امرأةً واحدةً من حيّنا تسلكهما .

طريقان غير مستقيمين يؤديان إلى الحيّ الشرقي . . جنّة الحواس . . هكذا يسميه (الزقرتيون) .

الناسُ في حيّنا يسمونه (حيّ الأجاويد) . . سألتُ أبي مرةً عنه . . ههههه . . لم أستطع أن أسأله مرّة أخرى . نهرني يومها ، وهددني بالرمي خارج البيت إن فكرتُ يوماً في السَير إليه . سمعتُ كثيراً عن حيّ الأجاويد ، لكنّي لم أره قطّ . سمعتُ عن لياليه ولم أسمع كثيراً عن نهاراته .

قِيل لي : إنّ حيّ الأجاويدِ ليلٌ .

مررتُ بالحَيّ صباحاً باتجاه السُوق مرورَ المُتخطّف الوَجِلِ ، كأنّ أبي – رحمه الله– ينظرُ إليّ!! أزقّةٌ ضيّقةٌ ، أبوابٌ متقاربة ، متلاصقة . . كُلّ بابٍ على الطريق بيتٌ . رغبتان تساوراني : أن يحضنني الكشفُ ، وأن «ألوف» ليلاً في هذا الحيّ فلا يُوقِف تلاطم هذياني أحد .

الوصول إلى حيّ الأجاويد ليلاً ليس صعباً ، لكن العودة إلى حيّنا يعني المرور على (النواطير) ، حرّاس الحيّ عند المداخل . تُعرِّف نفسك من مسافة كافية للنواطير إذا لم تكن من روّاد الليل مثل كلّ (الزقرتيين) ، الذين يستمدّون من القمر ذَرْعَ الظلام . سيُذاع اسمُك بين (الزقرتيين) في المَرَّة الأُولى فقط ، ثمّ تُنسى ما لم تدخل في عالمهم (الزقرتي) ، وتصبح زقرتياً صغيراً ، تسري عليك شروط (الزقرتية) : أن لا تخرج لفتاتك إلا ليلاً ، وأن لا تتصل بفتاة (زقرتي) آخر مهما كان وضعك ، وأن تكون ملابسك وزينتك نظيفة ، وأن يكون جسدك مغموراً بالعطر . . أن يكون عطرك جسدا . . وأن لا تخرج لفتاتك في شهر محرم ، وصفر ، ورمضان ، وأن تكون مسئولاً عن سكن فتاتك وطعامها ، وملابسها ، أنتَ عائلها . وأن تكون الفتاةُ محصورةً عليك . . وأن تكون شهماً ، كريماً ، محباً ، ذواقاً لا تلتفتُ للحيّ ساعة الخروج إلى جنّة الحواس ، كتوماً لأسرار (الزقرتيين) ، خصوصاً (زقرتيي) الحيّ . تكون في الحيّ ولا تكون فيه ، أشبه بالمتصل المنفصل ، تشارك الرجال ، وأهل حيّك في يومياتهم ، وأحزانهم ، وأفراحهم ، وتقاليدهم ، وعندما تهمّ بمغادرة الحي إلى حيّ

الأجاويد تنغمسُ في مبادئ الزقرتيين ، وتكون قمرياً خفيفاً ، كأنّ حيّك لا يعرفك . . . وأن لا تحمل أحزان حيّك إلى جنّة الحواس . كلّ مَن يخرج على هذه القِيم والقوانين (الزقرتية) ينالُ لقب (زِفت) ، أو لقب (مو رجال) ، ولا يعدّ (زقرتيا) ، مثل (حسانوه الزِّفت) ، الذي شاهده نواطير الحيّ يعود من فتاة هواه في ليالي شهر صفر . كرهه كبار (الزقرتيين) ، فسموه (حسانوه الزِفت) . سُحِبَ منه لقب (حسن الزْقِرت) ، وصار من رجال (الطوابير) في حيّ الأجاويد .

ثلاثة أسابيع مضت ذرعت فيها حيّ الأجاويد باباً باباً ، ورغبةً رغبةً . بائع الاز (الكيروسين) هنا ، لا يُشبه الحاج إبراهيم في حيّنا ، ذاك الرجل الذي لا ينظر لغير حمارته ، وامتلاء خزاني الاز على ظهرها المُثقل بالنار . تُحييه النساء فيستجيب لهن . يسألنه عن زوجته وعياله فيُطَمْئِن السائلات أنهم بخير جميعا ، لكنّه لا يرفع عينيه في وجوه النساء . يدخل البيوت فيعرف مواضع دْرَام (خزان) الگاز ، وسعته . لم يكن من حيّنا لكن النساء هنا أَلِفْنَ طيبته .

مُطيِّر الحمام في حيّ الأجاويد لا يُشبه الشاب حسن السيد . رجل بشارب متوسط الحجم ، يربي الحمام بأنواعه ، ويبيعه ، وينصبه شركاً للصبيان! لا يخلو دكانه الصغير من الصبية ، ولا من الشاب أو الشابة (سالم)!! ههه . . لا أحد يعرف جنسه!!

عرفتُ أنّ حيّ الأجاويد ليل ، وأنّ بيوتَ الحيّ من مقهى الفارة ، الذي يستقبل أعضاء جددا كلّ مساء تقريباً . كان مُرتادو مقهى الفارة

يُســمّون الزوّار الجـدد بـ (الخُطّار) ، أولئك الذين يمرّون مـرّةً واحـدةً ، أو مـرتين ، ثمّ لا يراهم أحـد ، تماماً مـثل خـاطرة تخطر في البـال . يُقـال إنّهم كانوا يمتلؤون سريعاً ! كنتُ متأكّداً بأنّي لن أكون من الخُطّار .

شايٌ فـارسيٌ لا يملّ النادل عـبد الصـمد الدوران به منذ الصـباح حتى منتصف الليل ، تغري حمرته على احتضانه كل لحظة . صوت تصادم قطع لعبة (الدومنه) ، ولعبة (الكوت) تحظى بورق مُزيّن بصور نسـاءٍ بيض عـاريات . صـوت الغناء يعلو ويهـبط من مـسجل صـوت خشبي ضخـم ، ودخان كثيف تتراءى للناظر فيه أشياء تتحرك . صور تملأ جدران المقهى كلّه تَبِينُ مرّةً ويكادُ الدخان يُخفيها . في الصباح يكاد الهـدوء يُطبق على المكان لولا أجسـاد تخـرج من بيـوت ليـست بيوتها ، تقصدُ المقهى بصباحاتٍ ، وكلماتٍ هامدة ، مثقلة ، مفرغة الطاقة . يقترب عبد الصمد من أحدهم

- «يعطيك العافية»

يعـرفُ عبـد الصـمد أمـزجة الجـميع هنا ، ومـتى يتكلم ومـتى يصــمت ، والوقت الملائم للمــزاح مع هؤلاء النفــر . هو أعلم الناس بالناس هنا ، بين عـينيـه ولون الشـاي سـيـرهم ، وهو يغـري - دائمـاً - بالحديث معه على الرغم من انشغاله . لا يشعر أحد بالحرج عندما ينوي محـادثته ، أو حتى مدّ يده ومشاكسته . يرجع إليه كبـار النفر لمعرفـة آخر أخبـار حيّ الأجاويد . يكفي أن تشرب (استكانة) شـاي واحدة من يديه ليبقى وجهك في ذاكرته . كأنّ لون الشاي لديه ذاكرة

الوجوه . سألته ذات صباح عن طوابير الحيّ فضحك وقال في عجلة :

ـ «عمي إهني في الليل الحي كله طوابير في طوابير . . طابور عود طابور صغير . . طابور سريع ، طابور أسرع»

وضع شاياً ، وضحكةً سريعة على طاولتي وغادر . . . ههههه . . لم أطلب شاياً !!

في مساء اليوم التالي كنت النفر الخامس في طابور قصير لا يزيد على ستة رجال . ماذا سيحدث لي لو رآني أحدٌ من الحيّ؟ كنت سريعَ التَّلفُّت . كلّما تحرّك الطابور نحو باب البيت القديم ، دفعني رجل خلفي بقسوة إلى الأمام . كان ينادي شاباً ماراً برموز ، ويضحك ساخرا كأنّه يعنيني ، ويلفت الأنظار نحوي . شعرت بحرارة في بطني تزداد كلما اقتربت من الباب .

– «ما صارت حالة هذي (. .) أمكم كلكم» صاح الرجل الذي خلفي ، ثم عاد لدفعي بقسوة .

– «تحـرّكْ يالعلة . . تحرّك يالنفية . . إنت من أي فريق؟» قال بسخرية .

لم أستطع الاستدارة و النظر في وجهه . حرارة بطني تكاد تشتعل ناراً . لم يحدث لي ذلك من قبل!! يخرج بعض الرجال من البيت فيشاكسهم الرجل بكلمات لا يرى فيها أيّ حرج :

- «ويش نزلت خرزة ظهرك لو لا؟ . . فسيحة لو ضيقة؟ (. .) أمكم كلكم» يضحك بسخرية ويدفعني بقسوة .

فلما وصلت الباب وصار عليّ الدخول لم أستطع أن أقول كلمة واحدة للشخص الذي ينظم الدخول والخروج ، فانسحبت من الطابور بسرعة ، والحرارة تقتلني . لمحت وجه الرجل الذي خلفي ، فرأيته يبتسم بسخرية . أشار بيده وقال :

- «هاك خذه يالمضرَّط . .(. . .) أمكم كلكم» .

غادرتُ الحيّ بسرعة نحو ساحل حيّنا . مررتُ بالنادي الثقافي وقد تجمّع أعضاؤه ، وآخرون خارجه يشاهدون فيلماً وثائقياً تعرضه شركة النفط . كان النادي قريباً من الساحل ، لا يفصله عنه سوى عمائر صناعة السفن . سُمّارٌ يجلسون على رمال الساحل النظيفة ، بالكاد تُسمَعُ أصواتُهم ، وماء البحر لا يكاد يُرى إلا في أمواجه البيضاء . لم أستطع أن أرى موجة بنفسجية واحدة . كيف؟ كنت أراها كلّ يوم مرّةً أو مرتين ؟! للماء خفاياه وإخفاقاته . . الماء قلبي ، والناس هنا تحسن الإصغاء للبحر ، وأصوات أمواجه ، ويروون محادثات طويلة بينه وبين البحارة ، ونساء الغواصين ، والشعراء .

عدت إلى مقهى الفارة في مساء اليوم التالي ، سألت عبد الصمد عن بيت رأيت أمامه طابوراً طويلاً ، فقال :

- «هذا يصير بس إذا فيه وحده جديدة . . لكن بعد أيام تصير كلش عادي . . أوّل الأيام ما تفتح وجهها للناس بعدين عادي . . الإنجليز ما يرضون ينامون مع وحدة ما تفتح وجهها . . بس الإنجليز يشوفون وجهها . . وجهك حلو عمي» .

– «من وين النسوان إللي هني؟» سألته وأنا منشغل بالشاي .

– «أوه . . من كل مكان في الدنيـا ، مـخلوطات مـثل مـتـاي الهنود . طب واتنقى . . تعال واتخيّر» ضحك وغادرني .

جلسَ بقربي شخصٌ عليه آثار النعومة ، عرفتُ من عبد الصمد أن اسمه (مجيد) ، يناديه الجميع باسم (جي جي) ، وأنّ مهمته في الحيّ غسل وتزيين ثلاث مومسات ، وقضاء حوائجهن ، وترتيب غرفهن . هو نظيفٌ دائماً وثيابه مرتّبة . قام من مكانه فجأة على إثر أصوات عالية خارج مقهى الفارة ، ولم يكمل شايه . سمعته يقول :

– «سوتها الحُولة»

خرج كلّ الذين في المقهى يضحكون . شجارٌ صاخبٌ بين رجل ، ومومس يسمونها (الحُولة)!! كان الخلاف حول كروة (أجرة) الحولة .

– «صدقوني . . زوعت قبل ما ألمسها . . ما لمستها كلّش» يبحث عن مُسانِد .

_ «(. . .) أمّك . . يعني لو ماشفتني ما بتزوّع ياولد (. . .)؟» تشير بيدها نحو جسدها .

تدخّلَ أحدهم لحل النزاع ، بعد أن عاد بهما إلى داخل البيت . وكان غَلْقُ الباب علامة الرضا والتفاهم في حيّ الأجاويد .

– «صدق . . قحبة وكروتها عليها» قال جي جي .

حدثني عبد الصمد قال : «ما يطوف أسبوع ما فيه هوشة . . ساعات يصير ضرب أو مشكلة كبيرة ما تنحل . الأسبوع اللي راح

موسوه الأصمخ عمل مقلب كبير في شيخو أم الگاز . .هههه»

- «ويش اللي صار . . وليش أم الگاز؟»

- «كل اللي دخلوا بيتها يقولون ريحتها كاز!! كانت تتطنز وتتطعبز على موسوه واجد . . تخلي ربع موسوه يدخلون بيتها بس هو تطرده . . وفي يوم سوى موسوه إشاعة على شيخوه : أي واحد ينام وياها يصيده مرض وتنتفخ (. . .) . .هههه»

- «ههههه هها هاهاهاهاها»

- «صارت سمعتها سوده!! اختربت!! بعدين وافقت عليه! ويوم دخل بيتها ونام معاها حط ليها فلفل داخل (. . .) خخخخخ هههههه . . ذيك الليلة كل فريق الأجاويد تجمعوا عند باب شيخو»

للقمار حظه مساءَ كلّ يوم في زاوية المقهى الجنوبية . مجموعة متناسقة من مهرة اللعب على موعد يومي للشاي والقمار . هادئون ، لا يُسمع لهم كلام كثير حتى يبدأ الورق يتقلب على الطاولة . يوسفو أبو جمل ، عزيزو العكّاز ، عبود أبو تنبوله ، علووه ولد البوبرة ، سمحان المِنضرب ، حسانوه الزِفت ، حماني البُوج ، وغيرهم من أبطال الورق يتحلّقون بقليل من المال ، وكثير من الصبر والمتعة . لألقابهم قصص ، ولأسمائهم سِير . تأتي عليهم حالات لا يقترب منهم أحد حتى عبد الصمد نفسه . عندما يخسر يوسفو أبو جمل ينسحب بصمت ، وعندما يفوز يغمى عليه ، فلا يفوق إلا بعد أن يتقاسم المتحلقون حصته . أحياناً يتركون له قطعة نقود أو قطعتين . وعندما يخسر عزيزو

العكّاز يتهيب زبائن المقهى لشجار ينكسر فيه كرسي أو اثنان ، و يسيل فيه قليل من الدم . وفي اليوم التالي يعودون للعب وكأنّ شيئا لم يقع! وقد يكون الفائز دورية الشرطة!!

لمحت ذلك الرجل الكريه يلوحُ لعبد الصمد بيده . تذكرته وتذكرتُ دفعه لي بيده ، وسخريته مني . غيّر مكانه . صار قريباً مني ، يحاول طرد دخان السجائر بيده :

- «أف (. . .) أمكم كلكم على هالدخان . . يعنى (. . . .) أمكم يطلع منه دخان»؟

تحركت من مكاني فشعر أني أودّ مغادرة المقهى ، فركز عينيه في عينيّ وقال :

- «ها يالنفية وين رايح؟ حتى المَتُوت نعمة الله»

تحركت نحو الباب الجنوبي-كان للمقهى بابان : جنوبي ، وشرقي- دون أن أنظر إليه ، فلما تجاوزته ، سمعته يقول :

- «(. . .) أمكم كلكم . . وينك يا صمدوه الزفت؟»

أكثر من ثلاثة أشهر قضيتها في حيّ الأجاويد ، لم أتجاوز فيها مقهى الفارة . رأيتُ مراهقي حيّنا يمرون حيّ الأجاويد بعد انتهاء فيلم سينما المَحَّارة . كانت أصواتهم وقهقهاتهم تصل قبل ظهور أجسادهم في الظلام . يتجمعون أمام بيت شريفة ، يطرقون باب بيتها الصغير بقوة ، يضربون نافذتها الوحيدة على الطريق ، فلا يبتعدون حتى يفتح أحدهم الباب ، ويتلقى وجهه مجموعة من الحجارة!!

ليالي المناسبات تعني أن يتسلى المراهقون في منتصف الليل بحجارة ليلية تنال من منازل الحي ، وتعكر صفو المتقمرين ، أو بالبحث عن فرجات صغيرة في بعض البيوت الخشبية ، أو الإصغاء إلى أصوات اللذة بسخرية لا أحد يعرفُ الغاية منها! كان من هؤلاء المراهقين (سعيدو) ، الذي طرده أبوه من البيت فلم يجد ملجأً غير حيّ الأجاويد . أدخله أحدهم إلى (مَكِّيو) فاعتنت به ، وربته على يدها .

حيّ الأجاويد ليلٌ يمرّ به رجال أسوياء في الغفلة ، يمنحهم الليل حلم الجسد ، فيهبونه مرارة الكدّ والكدر اليومي ، وحين يغادرونه لا يفتحون جراحهم إلا للَّيل القادم .

يمرّ الشاعر الخطيب السيد محمد بالحيّ ليلاً بدراجته الهوائية ، عائداً إلى بيته بعد أن يُنهي خطبه في مآتم العاصمة . يوقفه أحدهم يحمل فنراً (سراجا) مضيئا ، يعرض عليه بهجة الجسد :

- «تفضل تفضلْ . .حلوة ومزيونه . . حلوة ومليحة»

يبتسم السيد مرتين : الأولى لجُرأة الدعوة ، والثانية لتجاهل الداعي مقام السيد محمد الديني . يطلب من حامل الفنر –بهدوء وقليل من الضحك– الابتعاد عن طريق دراجته ، وعن قريحته الشعرية :

ولو جان من ماضي الخلق جان الأمر هان
لكن رضا ومُلاّ وسيّـــد وابن عدنان

وكلّ مرة إل تِجْتاز يدعونك ها الجلــوس
قاسيت هالحالة القشرة أربــــع اسنين
وأنا أدور لي مكـــان الزين في وين؟
داني من السوق ومن الدكــتور والعين

كان القمريون يخطئون في تمييز منازلِ حيّ الأجاويد كلّما عصفَ بهم الماء ، واهتاجت الخيول في داخلهم ، فكثيراً ما كانوا يطرقون باب بيت السيد محمد ليلاً مرّات عدّة ، فلا يفتح لهم الباب أحد . لم يهدأ بال السيد محمد ، إلا بعد أن انتقل وأسرته الصغيرة جداً إلى بيت في حيّنا ، بعيداً قليلاً عن حيّ الأجاويد ، قريباً من الدكتور والعين ، والسوق ، وأناسٍ لا يُشبهون السيد محمد وأسرته!!

كانت نشرات المستشار تنصّ على منع اختلاط بيوت حيّ الأجاويد ببيوت أحياء العاصمة منعاً شديداً ، أو أيّة محاولة لتوسعة الحيّ ، أو تغيير النظام فيه! أوانتقال امرأة منه إلى خارج حدوده . وتنصّ على أن عقاب المُخالفات والمخالفين عسيرٌ : سجنٌ ، وغراماتٍ ماليةً ، وإبعاداً لِمَنْ هُنّ من غير البلد .

صرتُ شبه عاطلٍ عن العمل ، ولم أعدْ أفتح الدكان في غير وقت العصر حتى غروب الشمس . لم أعد أرى مريم . زاد ولعي بالبحر على الرغم من أنّي لم أستطع رؤية الموجة البنفسجية .

دخلتُ مقهى الفارة وكأنّي أدخله للمرّة الأولى . اقترب منّي الرجل الكريه فابتسمتُ له وأنا أبلعُ ريقي . شَرِبَ الشاي على طاولتي

ولم يقلْ كلمةً واحدةً، لكن جسده وعينيه يقولان كلّ شيء . كان شبه راضٍ عنّي . سدّد حساب الطاولة وسحبني من يدي إلى خارج المقهى فلم أسأله عن الوجهة ، لكن حرارة الألم في بطني تكاد تحرقني . كان اسمه كريمو الديچ (الديك) .

- «محسنو . . يمكن شفت بطيخة خضره» يضحك الجميع .

٢٠٠٤/٧/١٠

٧

مُتَمكِّنٌ في تَلْوِيْنِه

تملكُ خلقَ الضوء في ماء البحر كلَّ صباح . لا يكونُ صباحُك إلاّ بالبحر ، ولا جهةٌ تُدير نحوها خاطرَك غيره . طقسُك الماء ، تخترع لمعانه ، وتخترع تموّجه الهادئ . كنتَ الطفل الذي يُغيّر مخترعاته كلّ يوم جوار البحر . تدخل عَمَارة (ورشة) الحاج جاسم بن محسن لصناعة السفن جرياً إلى أبيك تُريه سفينتك الخشبية الصغيرة ، فيُجزِل لك العطاء بكلمة طيبة سريعة جداً ، يرسلك إلى جواد حسن ليُزَيِّنها بألوانه . لا تكترث لكلّ مخلفات الخَشب ، ونشارته ، و(گِشباره) التي تُغطِّي أرض العَمارة كلّها بألوانه . كأنّك تمشي على الأشجار! كم كنتَ خفيفاً ياعبّاس!

تَعرفُ كلَّ أسماء الذين يعملون في هذه العَمارة ويعرفونك ، وتعرفُ أنّ عدد السفن في عَمارة الحاج جاسم بن محسن ثلاثٌ لا أكثر . لا تتحمل هذه العَمارة أكثر من ثلاث سفن كبيرة . وإذا ما

طُلِبَ من الحاج جاسم صناعة (بُوم) لا يكون في العَمارة غير سفينتين فقط ، لكبر وضخامة حجم (البُوم) عن (البَانُوش) ، لكنّ طلب صناعة (بُوم) لا يكون كثيراً ، فبعض (العَماير) لم تصنع غير واحد أو اثنين في سيرتها كلّها .

كنتَ صغيراً جوار هذه السفن العظيمة ، تمرّ بصنّاع السفن (القلاّفين) جالسين على ألواح متينة حول السفينة فلا يلتفتون إليك . ومَنْ يراك منهم يصرخ عليك «ها يالدچوي عباس»! ففي لهجتهم التي اخترعوها يسمون الصبي (دچوي) والصَبِيَّة (دچوية) ولا أحد يعرف لماذا؟! عيناك في الأعلى تبحث عن جواد حسن ، وهو لا يكون إلا في سفينة أوشكت على الاكتمال ، ولم يبقَ إلا لمساته الأخيرة على طرفيها ، ومؤخرتها (الرگعة) والسارية ، والخشبة التي تربط منها السفينة في الميناء ، ويسمونها (چْلاب) .

يأتي جواد حسن من شرق المنامة مَشياً على ساحل البحر ، يحمل كيساً من قماش تغيّر لونه ، فيه أدوات رسمه وتلوينه! ويحمل معه جسده الصغير ، النحيل الأسمر ، يسعفه في تسلق ألواح (السقلاّت) مثل فراشة . عينان واسعتان قريبتان من الاستدارة ، يستقبلُ الجميع بابتسامته التي تزيد من دخول أنفه الصغير إلى داخل وجهه الصغير! ربّما لأنّه متفرّد في عمله ، مُتمكِّن في تلوينه ، لا يشاركه أحد إلا ثلاثة ألوان : الأزرق البحري ، والأبيض ، وقليلاً من الأحمر إذا استدعى الأمر أو الطلب . يجلس على لوح (السقلات)

بهـدوء ، وركـبـتـاه في بطنه ، يتكوّر ، يزداد خـفـاءً! ولا يُرى منه إلا الفرشاة ، وظهره . تتحرك الفرشاةُ مع إيماءاتٍ في الوجه في آنٍ واحد ، كـأنّ وجـهـه يهب الرسم معناه! كنتَ تناديه «حجي جواد . . حجي جواد» فلا يلتفتُ إليك! في كلّ مرّة تنسى أنّ جواد حسن لا يتكلم ولا يسـمع الكلام! أصم ، أبكم ، وأنت لا تقـتنع أن الإنسـان قـد يُولد من غير سمع ومن غير لسان!!

تُلوّح له بيـديك الصـغيـرتين ، تُحـدث ضـجـةً فـلا يراك - أيّهـا الدچوي - ولا يكترث بغيـر الأزرق على لوح السـفـينة! تحاول تغيير الضوء ، تخترعُ ظلالا صغيرة قد تستفزّ بها عيني جواد حسن دون فائدة! تفكر في رمـيه ببعض (الـگشـبـار) فـلا تصل رميـتك حـتى منتصف المسـافة! لا يَراك حتى تقفَ بين السـفينةِ ولوح (السـقلات) أسفل جواد حسن مباشرة . يبتسم لك قبل أن يحوّل نظره إليك! يشير إليك أنْ انتظر قليـلا فقط ، وأنتَ لا تصبر ولا تغـادر مكانكَ! وجـواد حسن لا يغادر مكانه أيضا حتى يُكمل رسم خطّه الأزرق .

ينزلُ إليكَ مثل جنّي واثق لا يكترث ، يده على الألواح وفرشـاته في فـمـه . لا تقـول له شـيئـاً ، ولا ينتظرك ليـعرف مـاذا تريد! تـدفع له سـفـينتك الصـغيـرة فـيمـرِّر عليـهـا بما بقي في فرشـاته من اللون الأزرق البحري . يتغير شكلُ السفينة كلّها ، وتزدادُ عجلتك في وضعها في الماء! حتى إنّك لا تشكره ، ولا تلتفت إليه!! ألستَ (دچوياً) ؟!

تقـتربُ من مـاء البحر فـتخـتـفي السـرطانات الصـغـيرة السـوداء ،

والخضراء الزيتية مسُرعة في مخابئها داخل وأسفل الحجارة . لم تكن راضياً عن سفينتك الصغيرة ، ولم يُسعفها الخطّ الأزرق في حفظ توازنها! صارت تنقلبُ كلّما وضعتها في الماء! غيّرتَ الماء ، غيّرتَ الجِهةَ ، وسفينتك هي هي ، لم ترتبْ في هندستك لها ، وقلتَ إنّ الخطّ الأزرق هو السبب كلّه! ترمي بها على رمال الساحل ، تستبدل بها تلك القشرية التي تستخرج من ظهر حيوان الحبّار(الخفّاگ) . يستخدم الصيادون لحم (الخفاگ) في صيد السمك بالميادير (السنَّارات) ، ويرمون قشرةً ناصعة البياض هي ظهر (الخفّاگ) وعموده الفقري ، الذي لا يكون إلاّ بها ، وتكون على شكل قارب صغير ، تغرز في مركزها عصا صغيرة ناعمة وتضعها على الماء فتنقلب ، فتكسرها نصفين غضباً من الماء! تُجري تجربة ثالثة على قطعة من الفلين الأبيض ، ولا تكفّ عن غرز عصا أو عصاتين في وسطها ، فبدونها لا تكون سفينة! . . لا تكترث بقوانين الماء ، ولا يمرّ بك قانون الطفو ، ولا يهمّك أنّ قوة دفع السائل للجسم تساوى وزن السائل المُزاح!! لا سائل ولا إزاحة ، ولا كثافة!! ما تغمره أنتَ في الماء يغمرك بالدهشة ، ويزيح عنك الملل!!

هنا الساحلُ للجميع ، لا أحدَ يملك البحر . ألم يجرِ العرفُ قديماً في هذه الجزيرة : أنّ البحر تملكه القرية التي تجاوره وليس الغريبين عليه؟! ألم يقل الباحثُ والمستشرق البريطاني (روبرت سارجنت) ذلك؟! لكن القلاّف الحاج محمد حسن يعرفُ ذلك قبل (سارجنت)

ويحـفظه ، ويذكّـر به . يتلقـاك على السـاحل بإزاره الأزرق المخطط و(فانيلته) القطنية البيضاء ، وقد عاد بالسمك الوفير . تنتظره يُثبّت حبال قاربه الصغير (البَلم) لترى إلى سمكاته قبل أن تموت كلّها أو يتغير لونها! يمسكك برفق من أذنك اليسرى فتتصنع الألم! يلحّن اسمك ويتغنى به : «عباسوه يا عباسوه . . عباسوه يا عباسوه يالدچوي» . يضع سمكة (زَمْرُور) صغيرة في يدك ، وخمسة وعشرين فلساً كعادته مع كلّ أطفال الحيّ القريبين منه!

تلمحُ حماماتِ حسن السيد تطيرُ على ساحل البحر ، ولا تخشى التحليق والصفّ في فضاء طائر النورس لكنها لا تقترب منه عندما يحطّ على البحر . يحفظ الناس لحسن السيد أنّه قال : «أي واحد يحط نورس في قفص الحمام أو الدجاج إهانة للنورس . . النورس أبو البحار ما يحبسونه في قفص ما يعيش بدون بحر . النورس هو صدورنا» قال حسن السيد ذلك بعد أن عرف أنّ شاباً من الحيّ وضع نورساً في قفص الدجاج ، وأنّ لونه الأبيض تغيّر ، مرّ عليه عامٌ لم يرَ فيه البحر ، ولم يهاجر مع النوارس! كان النورس محبطاً ، مكتئباً ، دخلته صفات الدجاج!

تعودُ إلى العَمارة وقد تجمّع ثلاثةُ صبيةٍ من حيّك : جعفر ، وعبّود ، وحمزة يتابعون بدهشة جواد حسن يرسم سمكةً في مقدمة السفينة ، لم تقف معهم ، واخترت الوقوف جوار جَدّك لأمّك الحاج رجب بلحيته البيضاء وطاقيته المشجّرة ، يعمل في سفينة صغيرة

وحده وقد أوشك على الانتهاء منها . وضع في يدك (كِشبارة) بُنّية اللون وقال :

- «روح لأحمد أبو ربيع ، سلمه الكشبارة ، واطلب منه يعطيك بيبسية سوده . سمعت؟ بيبسية سوده»!!

– «بس هذي مو بيزات»؟!!

– «ما عليك . .روح إليه وگول ليه : يسلم عليك أبوي العود ويبغي بيبسية سوده وخلاص»!

كان جدك الحاجُ رجب واثقاً ، وكنتَ متردداً واقفاً عند باب دكان أحمد أبو ربيع ، و(الگشبارة) في يدك الصغيرة . زادت دهشتك عندما استلم أبو ربيع (الگشبارة) وأعطاك (بيبسية سوده)!! شربها جدّك كلّها دفعة واحدة ، ولم يبقِ لك شيئاً !! جدّك هذا لا يبتسم ، عصبي المزاج ، خصوصاً في أيامه الأخيرة ، وحيداً يُدخّن نارجيلة التبغ ، ويزور حسينيات الحيّ ومآتمه!! وعندما توفي قال ولده : «خلاص . . الوالد سافر» ولم تنزلْ من عينيه دمعةٌ واحدة! ويوم تشييعه إلى قبره لفّوه في كفنه ، قماش إحرام حجه الأخير إلى مكة المكرمة ، خطّ عليه الحاج عيسى بن حسين بماء التربة الحسينية آيات بيِّنات ، والشهادتين وأسماء الأئمة ، و المعصومين ، وبقربه شاب يتعلم منه طقوس الكتابة على الكفن . صباح التشييع أوقف كلّ القلاّفين عملهم في (العَماير) للمشاركة في الأجر والثواب . تنتهي مراسيم الدفن فلا يعودون إلى (عَمايرهم) ، ولا يستأنفون عملهم ، ولا

تُحسب لهم أجرة هذا اليوم حتى لو حدثت الوفاة فيه بعد صلاة الظهر! هذا اتفاق عرفي غير مكتوب وغير مدوّن بينهم وبين أصحاب (العَماير)! كأنّ الجنازة خسارة!! مع ذلك يصرّ القلاّفون على استمرار هذه العادات حتى لو على أنفسهم ، ينقطعون عن الحيّ ، ويتواصلون معه في آن . ترحموا على جدّك وتذكروا خصاله وحكاياته وصمته ، وزواجه الثاني بامرأة من جزيرة المحرق ، والقليل من ضحكاته . اقتربتَ من قبره وغرزتَ (گِشبارة) صغيرةً في ترابه الرطب .

في اليوم الخامس من شهر محرم الحرام من كلّ عام يتوقف القلاّفون عن العمل أيضاً حتى نهاية يوم الحادي عشر ، ويشاركون بأموالهم ، وأيديهم ، وقلوبهم ، ودموعهم ، في هذه المناسبة السنوية الحزينة ، مناسبة واقعة كربلاء . وللقلافين مناسبة أخرى يعطلون فيها كلّ أعمالهم ، ولا يشاركهم فيها إلا نجارو الحيّ من أبناء القلاّفين ، وإخوانهم ، هي ذكرى مقتل النبي يحيى . يروي القلاّفون أنّه هرب حفاظاً على نفسه ودينه من أعدائه واختبأ داخل جذع شجرة . فلما علم أعداؤه بمكانه ، لم يطلبوا منه الخروج منها ، بل نشروه بمنشار كبير حتى قطعوه تماماً مع الشجرة نصفين . لا يستغني القلاّف ، ولا النجار عن منشاره كلّ يوم . كان جدك –رحمه الله– يردد في كلّ حزن :

– «ما بكت السماء والأرض إلا على يحيى بن زكريا ، والحسين بن علي عليهما السلام» ثمّ تدمع عيناه .

أُسْنِدَتْ مهمة إكمال سفينة المرحوم جدّك الصغيرة إلى قلاّف

نشط ، ولم تكن هذه السفينة الأولى التي يموتُ قلافها قبل إكمالها . . أم إنّها الأخيرة في سيرة القلاّفين؟!

- «لا لم تكنْ هي الأولى ولم تكن الأخيرة . . ترك الحاج جاسم التِين سفينةً عظيمة ، لم يبقَ على اكتمالها سوى القليل . كانت في عَمارة منفصلة عن بقية (عماير) قلاليف أهل الحي ، لكنها لم تكن بعيدة . كنتُ أنظر إليها وإلى عظمتها من ثقب كبير في جدار العَمارة الجنوبي . عظيمة ومخيفة! بالكاد يدخل الضوء في العَمارة وقد ملأت السفينةُ المكانَ كلّه ، شامخة شموخ الموت . للتو كانت العَمارة تضجّ بالنشاط وأصواتِ المطارق تزجر المسامير للدخول في ألواح متينة قاسية بضربات ثابتة . قال لي جدّي لأمّي مرّة : «عَمارة الحاج جاسم التين أوّل عَمارة تقابل البحر هنا ، و(العَمایر) التي تراها الآن جاءت بعدها . . الحاج جاسم أستاذٌ معتبر في القلاّفة ، لا يجهل القلاّفون قدره» . وترك الحاج أحمد بن ميرزا سفينته الصغيرة وقد انتهى من ربط هيكلها بقطع خشبية صغيرة من الداخل تسمى (شَلامين) . أحياناً عندما يموت صاحب العَمارة ، تموت العَمارة كلّها ، ويبقى ما فيها من سفن مدّة طويلة ، بينما يتوزع قلافوها على بقية (العَماير) إن كان فيها متسعٌ لهم»

كنتَ تشحذُ ذاكرة الموت لديك يا عباس! ولم تكن تعرف - وأنت سليل البحر- أنّ لكلّ قلاّف بصمته على ماء البحر ، وأنّه في ما تأكلون وتشربون ، وتسكنون ، وتتخاطبون ، وتتعاونون ، وتأتلفون ،

وتتـجـددون في الحيّ . وأنّ القـلاّف المتـمكّن في تلوينه زينة الحيّ ، وأنّهم آخر الرجال في هذا المكان ، بعدهم يأتي رجال ليس فيـهم من القلاّفين إلا رائحة وجوههم ، وتشابه صورهم .

تلمح (إبراهيم النشّامة) يحمل عدّته ، مناشير يدوية متفاوتة في الطول ، وبعضـها لا يدخل في حقيبـة أدواته لطولها ، تلمحه فتنتظر لحظة استـقراره جوار أعظم جذوع الأشـجار في العَمـارة . لا ينتـمي الحاج إبراهيم إلى أيّة عَمارة ، عمله شراء الأشجار عظيمة الجذوع من أصحاب البساتين ، وقطعها ، ونقلها إلى (العَماير) حسب اتفاق سابق غير مكتوب ، لكنه أكثر مصداقية من المكتوب! بعد نقل الجذع إلى العَمارة يتفرغ الحاج إبراهيم لنشره نصفين متساويين طولياً في يوم أو يومين بمنشار أطول منك ياعباس! به أسنان قاسية ، يزداد لمعانه كلّما حركه الحاج إبراهيم في قلب الجذع! وكأنّ النشارة الرطبة على جانبي الجذع دمه! وكلما تعمّق المنشار في الجذع طرق الحاج إبراهيم على قطعة خشبية تساعد على تباعد جزئي الجذع ؛ لتسهّل حركة المنشار . قد يستعين بِصِبْيَةٍ يافعين لمساعدته في النشر ، ويوصيهم بالقوة وتحرّي الخط الأحمر المرسوم بمادة حمراء يسميها القلاّفون (مَغر) ، يجلبونها من زنجبار ، أو الهند ، ويخلطونها مع قليل من الماء لتكون جاهزة لليوم الذي أُعدت فيه فقط . ينشر الصِبْية في الجذع فرحين ، متباهين بإنجازهم ، بينما يتمتعُ الحاج إبراهيم بفسحة للراحة وتدخين سيجارة صغيرة هندية الصنع ، يلمح الصِبْية بعينيه الغائرتين ، ولا يتكلم ، ولا

يبتسم!! سيكون جزاء الصِبْية يوم تنزل السفينة إلى البحر ربع دينار لكلّ واحد منهم ، نظير أعماله الصغيرة في العَمارة ، وسينتظرون موعد عرض الأفلام الهندية في سينما اللؤلؤ بفارغ الصبر!!

لا يدخل الصِبْية هذه السينما -غالبا- إلا بصحبة الكبار مجاناً ، ولا يمنع مفتشُ الدخول من ذلك ، خصوصاً إذا كان مِزاجه رائقاً ، جميلاً!! وستكون فرصة الدخول للصِّبْيَةِ يومي الاثنين والخميس أكبر ، فعادة نساء حي الأجاويد زيارة السينما في هذين اليومين ، ولا يدخلن دون اصطحاب عددٍ من الصِبْية المنتظرين قرب بوابة الدخول المؤملين اصطحابهم . ما كان يعنيك ، ولا يعني صبية حيّك اسم الفيلم ، ولا قصته ، ولا طوله ، ومَنْ هم ممثلوه ، مادام الفيلم هندياً ، يحارب البطل -الذي يسمونه (الولد) في كل فيلم- فيه الشرّ ، وينتصر للخير . وقد يكتشفُ البطلُ في نهاية الفيلم أن قائد الأشرار (الحرامية) هو أخوه الذي اختطفه الأشرار طفلاً يوم هجموا على القرية التي ولد فيها ، وقتلوا والديه!!

أعجبتك مهارةُ جدّك الحاج رجب مع (الگشبارة) ، فقررتَ التمتع بسحرها عصراً مع أبو ربيع! أخذت (گشبارتين) : حمراء ، وصفراء بدلاً من واحدة!! ابتسم لك أبو ربيع كعادته ، وقال : «خِذْ وحدة إلى أمّك ، والثانية إلى أمّك بعد»!! كيف لم يعمل سحر (الگشبارة) الآن؟! ثمّة اتفاق غير مكتوب بين جدّك وأبو ربيع : أنْ تكون (گشبارة) واحدة من خشب السَاج فقط ، يُميّزه الحاج أبو ربيع

من رائحته ولونه ، والثاني أن تأتي (الگشبارة) ضحىً!! والثالث أن جدّك لا يشرب (بيبسية سوده) مرتين في اليوم!!

صباحاتك لا تتشابه ، ولا ينالها الملل : صفتان من الماء يهبهما للذين يبتكرون الضوء فيه!! تُشكِّل يومك مثلما يُشكّل الحداد أبو هلال الحديد الأحمر المائع في عَمارة الحاج محمد حسن ، في دكانه المبني من الصفائح المعدنية (الجينكو) . بابه إلى الشرق ، قريب من نادي الحيّ الثقافي . أبو هلال يصهر الحديد ليحتمل قسوة ماء البحر! أكثر ما ينتجه أبو هلال للبحر : مسامير متينة للغاية بأحجام مختلفة ، يُسمى كلُّ واحد منها (مسمار حدادي)! وهي تعني أنّ هذا المسمار من صنع حَدادي الحيّ ، وليس من تلك التي تحضر من بلاد الهند ، عندما يزاد الطلب على المسامير ، فلا يستطيع الحدادون تلبية متطلبات القلاّفين! يتفصّد جبين أبو هلال عرقاً حتى في فصل الشتاء ! أليس عمله في تخليق النار؟ وحده الحديد لا يتكلم حتى يكون في قمة خجله! يحمَرّ كلّه ليستوي كلّه! يغريك مشهده الناريّ ، وتودّ لو كانت مطرقة أبو هلال في يدك . تأسرك حمرة الحديد ، جمرته ، أليس الجمال يحرق؟ ترتد حمرته سواداً فجأةً عندما يضع أبو هلال الحديد في الماء ، ويخفتُ جماله! وقبل أن يهدأ فيه كلّ شيء يصرخ في الماء . .إشششِش !! (يُبَرْبِق) الماء! تتنفس النار لتموت!! خاتمة الجمال صرخة!! وخاتمة حمرة الحديد سواد وقليل من الدخان يشبه إعلان ما تبقى من كرامته ، وخاتمة أيةِ ثورة سرقتها!! ستعرفُ أنّ للماء وجعَ

الانطفاء أيضاً ، مثلما له بهجة الضوء .

هيأتِ النارُ المسامير للسفينة ثمّ اشتاقت إليها في عَمارة الحاج علي بو حسن! تَنَادى بعض القلاّفين إن ناراً تحرق عَمارة الحاج علي بو حسن ، وإنّها تقترب من السفينة الوحيدة في العَمارة! رأيتَ أباك والقلاّفين يركضون حفاةً خِفافاً جِهة الغرب نحو العَمارة ، يحمل كلّ قلاف منشاره . كانت عَمارة بو حسن في الجهة الغربية من حيّك ، ولم تكن مجاورة لبقية (العَمايِر) . وصل أبوك والقلاّفون إلى عَمارة بو حسن وقد بدأت النار تشتعل في (صاري) إحدى السفن . كان السَعف اليابس في سقف العَمارة سِرُّ انتقال النار إلى العَمارة كلّها . صعد القلاّفون إلى سطح السفن وبدأوا ينشرون السعف المشتعل بمناشيرهم النشطة دون خوف ، أو تراجع ، وبعضهم يحمل براميل ماء صغيرة من أقرب المساجد ، مانعين انتقال لهب النار إلى العَمارة كلّها ، والبيوت المجاورة . يموتُ القلاّف من أجل القلاّف أحياناً . لم يحدث في حيّك قط أن جاءت سياراتُ الإطفاء ووجدت ناراً!!

استأنفَ القلاّفون أعمالهم ، وعدتَ أنت إلى البحر تلاحقُ السمكات الصغيرات ظنّاً منك أنّها في متناول يدك . يمرّ بك صِبْيةُ حيّك الكبار راكبين البحر على أربعة من جُذُوع النخيل غير المتساوية في الطول ، مثبتةً ، مرصوصةً إلى جنب بعضها البعض بألواح ومسامير ، فتأخذ شكلاً هندسياً رباعياً غير متساوٍ ، لا يوجد موضع فيه لا يدخله الماء ليخرج من موضع آخر ، كأنّهم يسيرون على الماء!!

يضربون قاع البحر بعصاً طويلة متينة يسمونها(خَطْرَة) أو (فَرِّيس) مكشوفي الصدور والبطون ، والزنود السُمر ، حفاة ، ثابتين على سفينتهم المخترعة ، المسماة (أم جْدُوع) ، يتناوبون في دفعها بالخَطرة ، فلا يبقى شيء في خواطرهم إلا أودعوه الماء . يجلسُ أحدهم عليها متربعاً وهي تسير مؤكداً أنّها آمنة ، ومريحة ، رافعاً صدره مثل حمامات حسن السيد ، كأنّه صار للتو ملك الماء! وقد تقترب (أم جدوع) من بعض قوارب الصيد فيستعيرُ أحد الصِبْية (خَطرةً) أو (فَرِّيساً) منها على نية إرجاعه!! لا تظلّ (أم جدوع) ثابتة البناء أكثر من يومين! وقد تتفكّك وتتحطم ، وتتفرّق جُذُوعها وهي تسير بملك الماء! لا يفرّق الماء بين الملك وصبيته! يسبح الجميع للساحل ضاحكين ، يروون قصة تحطم (أم جدوع) بشيءٍ من الشجاعة ، بينما يتهم ملك الماء أحدهم بالإهمال في دفع (أم جدوع) نحو الجهة غير الصحيحة ، ويصفه (بالغَشِيم) ، أو (النَّفْيَة)!! وإنّه لو حرّكها صحيحاً ما تفتّقت!! وإنّ الصِبْية لا يريدونه في المرّة القادمة على ظهر سفينتهم الملكية الجديدة!! كان لابدّ من ضحية لتستقرَّ الأمور ، وليبقى ملك الماء ملكاً ، لا يدخل قيادته الخلل! لا يأخذك الصِبْية على (أم جدوع) -ياعباس- لمعرفتهم بخوفك ، وبقسوة أمّك مع كلّ الصِبْية الذين يقتربون منك ، أو يحاولون إشراكك في مغامراتهم اليومية! يسمونك أحياناً (ولد أمّك) ، وإذا ما اقترب منك صبيّ مازحاً صاح به آخر :

- «اتباعدْ عنه لا تْجِيك أمّه وتنفخ راسك وتلوّع جبدك ، ويمكن تلعن أمّك . . اتباعدْ عنه ولد أم عباس»!!

كانت أمّك (أم عباس) تطرقُ الأبوابَ وتُلقّن أمهات الصِبْية دروساً لا ينسينها ، فكيف حالها مع أولادهن!! إلا جارك (موسى) كم تمنّت أمّك لو تكونَ مثله ، قلافاً صغيراً ماهراً ، نشطاً ، جاداً ، فيه علامات القلاّفين الكبار ، سبّاح ماهر ، قلّما وجده الصِبْية يلعب في البحر ، طويل القامة ، أسمر ، صغير العينين ، في وجهه حزن تُبدده ابتسامة غير متوقعة ، يحمل همّ الكبار ، يُنجز ما يُطلب منه في غير عَجلة ، واثقاً ، يداعبه أبوه الحاج ناصر -صاحب أكبر (العَماير) في حيّك- في كلّ مناسبة للضحك قائلاً :

- «إنْتَ موسى بس بدون بحر»

تروي أمّه أنّه كان -دائما- يُمسك ثديها بطرف فمه عند الرضاعة ، ويتركه ملتفتاً لأيّ صوت يناديه :

«كأنّي وُلدتُ في بطن سفينة . أراقب صناعة السفن لوحاً لوحاً كلّ يوم في عَمارة أبي الحاج ناصر . كانت مهمتي مع أقراني صِبْية البيت صبّ القهوة والشاي للقلاّفين ، وإحضار وجبتي الإفطار ، والغداء لهم ، والتنقل بينهم بسلّة التمر ، وإعداد (النَارْجِيلَة) للمدخنين منهم ، وتحضير (الغَليون) لبعضهم . وفي فصل الشتاء يأكل القلاّفون العصيدة الساخنة وفي وسطها فراغ مستدير مملوء بزيت شحم البقر الطازج .

كان عليّ أن أكون ولداً خفيفاً مثل تلك الزَنابير السوداء التي تهوى الأخشاب القديمة في (العَماير) ، وتطير في سُرعة الهواء بين بيوتها . أحمل بعض الأخشاب الخفيفة أحياناً ، وأزوِّد القلاّفين بالمسامير إنْ نَقصت . كنتُ أشعر أنّي أستطيع إنجاز كلّ الذي يفعلونه مهما كان ، وأنّ مساعدة الحاج إبراهيم النشَّامة في نَشر الأخشاب من أيسر الأمور . تنمو السفن على عيني منذ وضع الخشبة الأولى القوية (البِيص) في هيكل السفينة حتى رسم جواد حسن فنونه عليها . ألمحُ وأعِي وأسجّل وأسألُ وأسمعُ وأستفهمُ وألمسُ وأسجلُ ، أفعلُ ذلك مراراً في اليوم الواحد فلا يملّ القلاّفون الإجابة ، ولا يبخلونَ عليَّ بنقل المعرفة .

في يوم (الگَلْفَاة) تضجّ العَمارة بالقلاّفين من كلّ (العَماير) تقريباً . إنّه اليوم الأخير للعمل في السفينة قبل تسليمها للرسام جواد حسن ، ثمّ لمالكها . يكون عملي في هذا اليوم مضاعفاً ، ووجبة الإفطار مختلفة عن كلّ يوم : حلوى ساخنة ، وخبز محلى بالتمر والعسل ، وحلوى (الخنفروش) ليس ألذّ منه! وقهوة لا يملّ القلاّفون شربها ، وشاي بالحليب ، ولا تقلّ وجبة الغداء عن خروف بالرز ، والدهن الخالدي الأخضر . سيكون عمل القلاّفين إدخال فتيلة قطنية بيضاء بين كلّ لوحين مرصوصين على طول جسد السفينة ؛ ليمنع تسرّب الماء إلى داخلها . تتمدّد الألواح بالماء فتضغط أكثر على الفتيلة ، فيزداد منعها لدخول الماء . هذه العملية كلها تُسمى

(الكِلْفَاة) ، واليوم هو يوم (الكِلْفَاة) ، و القلاّفون (يكَلفتُون) السفينة .

في (الكِلْفَاة) يستخدم القلاّفون مطرقة خفيفة وإزميلا (مُنْكَراً) حديدياً خاصاً غير حاد ، يُسمى (مُنكَر كِلْفَاة) . كنتُ أضع (مُنكَر الكِلْفَاة) في يدي اليمني ، وأصبعي السبابة أسفل لسان (مُنكَر كِلْفَاة) أحاكي عمل القلاّفين في إدخال الفتيلة في موضعها الصحيح . تحتاج الأصبع أن تتحرك بمهارة بين اللوحين ، وفي سُرعة معتدلة . بعد فترة من العمل في (الكِلْفَاة) تتدلى رؤوس الفتائل على جسد السفينة كلّه!!

لدى القلاّفين أنواع من الأزاميل لكل واحد منها موضع وعمل لا يستخدم فيه غيره . فهناك الإزميل الحاد جداً ، ويُسمونه (مُنْكَر) وبه يرمزون إلى المرأة فيما بينهم . وهي من مفردات لهجتهم السرّية الخاصة التي لا توجد في مجتمع مهني آخر! لا أحدَ يشرح لك لماذا المرأة (مُنْكَر)؟! ألأنّها تقطعُ مثله؟ أم لأنّهم يقطعون بها بين الرجل وغيره؟! أم هو لسانها؟ ولماذا كلّ ذلك وهو الذي لا يلتقي بها في ضوء إلا يوم الجمعة فقط الذي يكون مميزاً وخاملاً في آن!! وعلاقته بالمرأة عادية جداً وتقليدية أكثر!! ستعمل زوجة القلاّف كثيراً ، وتعتمد على نفسها ، وأطفالها من الإناث كثيراً ، وستكون أكثر قيادية من النساء الأخريات في الحيّ! بسبب هذا الغياب اليومي للقلاف ، وبسبب حضوره الليلي الخافت السريري تكون زوجته أكثر من زوجة . ربّما قرب (عَماير) القلاّفين من الحيّ يقلل من هذا الغياب ، فليس بينهما

سوى خفّة جَري صبي ، يترقّبُ بين لحظة وأخرى أوامر أمّه بحمل خبر ، أو أيِّ شيء صغير إلى والده القلاّف . قد يكون مثله قلافاً إذا ما اصطحبه كلّ يوم إلى (العَمايِر) ، وإذا لم يفعل سيكون لولده من الحرية في التنقل والخروج واللعب ما لا يتوافر لأولاد غير القلاّفين! وضريبة هذه الحرية قلّة المتعلمين فيهم ، فعندما رفض الطفل (حسن) ابن القلاّف (علي بن إبراهيم) دخول المدرسة لم يستنكر أحدٌ في عائلته عليه ذلك بكلمة واحدة!! سيكون التعليم أكثر في أولاد العاملين في شركة النفط ، وفي أولاد أعضاء النادي الثقافي القريب جداً من عَمارة أبي . يعمل (حسن) الآن موزعاً لسموم الفئران في وزارة الصحة . لا مكان للفراغ في حياة زوجة القلاّف ، ولا أعرف – مع كلّ ما تبذل هذه الزوجة– لِمَ هي (مُنْكَر)؟! هل كانت أمّي (مُنْكَراً) عند أبي؟!! وجدّتي عند جدّي؟! بسبب كثرة البحر من حولنا كانت أمّي زوجة قلاّف! وبسبب كثرة حضور البحر في أبي غاب البحر عن أمّي!! . . آخ . . ولو عرفتُ لِمَ هي(مُنْكَر) لفهمت أيضاً لماذا يُسَمُّون الصبي (دچوي) ، والليل (غزال أسود) ، والنقود (زَوَاهِير) ، والشاي (امْفرِّش) ، والقهوة (خَاچْعَة) ، والمنزل (العِدّة) ، واللحم (السَمْبَه) ، والسمك (نَبَخ) ، والماء (چِبّان) ، والحلاّق (مْدَرِّخ) ، والسكّر (شِيلاوِي)!! وغيرها!! كان عليّ أن أحفظ هذه المفردات قليلاً قليلاً . لكن ليس عليّ أن أعرف من أين أتت؟ وكيف؟ ولماذا؟ مثل أيّ قلاّف آخر!

جاءتْ سفينةٌ من بلد الزعفران إلى الساحل قُدّام عَمارة أبي للصيانة بعد أن أفرغتْ حُمولتها على رصيف الميناء (الفرضة) فطلب منّي أبي المشاركة في الصيانة التي يسمونها (العْشَار) ، بينما يسمون السفينة الجديدة التي تُبنى في (العَمَاير) باسم (الوْشَار) . ينتخبُ صاحب العَمارة ثلاثة أو أربعة من القلاّفين ، يُسند إليهم مهمة الصيانة كاملة بعد أن يتفقَ مع أصحاب السفينة على أجر كلّ قلاف في اليوم الواحد الذي لا يقلّ في (العشار) عن دينار ونصف ، ولا يزيد على دينارين ، ويكون أجر صاحب العَمارة إن رغب في الإشراف على سير العمل حتى نهايته أكثر من أجر القلاّفين بنصف دينار ، على أن يشتري صاحب السفينة كافة مستلزمات الصيانة من أخشاب ، ومسامير ، وفتيل ، وغيرها من صاحب العَمارة ، بعد تسجيلها في دفتر خاص ، يُطلع عليها ربّان السفينة لحظة تحصيل المستحقات . أحياناً يترك صاحب العَمارة مهمة الإشراف للقلافين أنفسهم فلا يكون له إلا قيمة المستلزمات حتى لو كان القلاّفون جميعهم من عَمارته .

قد يرى القلاّفون المشتغلون في (العْشار) أنّ قلافاً يعطّل سَير عملهم ؛ لضعفٍ فيه ، أو قلّة خبرة ودراية ، أو لإهمال فيه ، فلا يترددون حينها في إخبار صاحب العَمارة برغبتهم في نقل هذا القلاّف إلى عمل آخر في (الوْشار) في العَمارة ، فينقل بهدوء تام ، وبحكمة الأستاذ صاحب العَمارة ، مع حفظ كرامة القلاّف المنقول .

وقد يُطرد القلاّف إذا أهمل أو أضرّ بعمله ، وحمّل صاحب العَمارة خسارة إهماله ، كما حدث مع الحاج عمران ، الذي قضى عمره لا يجيد غير ضرب المسامير ، قال له أبي : «يالله شِيل سْيمَانِك» ، أي اجمعْ أدوات عملك وغادر العَمارة . فجمع الحاج عمران (سْيمَانَه) في (جَفِير) طويل وغادر . لكنّ صاحب العَمارة لا يهمل القلاّف المطرود ، بل يراقبه ، وينظر في حاله . فإن عَمِل في عَمارة أخرى رفع عنه المراقبة ، وإن لم يجد عملاً بعد يومين أعاده إلى عمله بعد أن يسدي له النصح ، ويوصي القلاّفين به! لم يحدث قطّ أن طُرِدَ قلاف ، وظلّ بلا عمل أكثر من ثلاثة أيام . لا أحد من أصحاب (العَماير) يرضى بذلك . كأنّ طرد القلاّف إعادة صياغة له .

وصلنا إلى السفينة (العْشار) على ساحل البحر ، ولم يكن فيها غير رجل واحد ، والبقية نزلوا إلى السوق . كانت السفينة واقفة ثابتة على جوانبها أربع دعائم من الخشب الصلب . وبعد فحص السفينة مع الرجل ، ومواضع الضرر فيها ، كلفني أبي بتغيير لوح متضرر في الجانب الأيسر من المقدّمة . كان عليّ تحديد موضوع الضرر بقلم خشبي يوضع رأسه في (المَغَر) الأحمر . حدّدتُ ما يجب أن يُنشر على عين القلاّف الأستاذ عبد الحسن الذي لم يتدخل في تقويمي إلا قليلاً . تسمى القطعة المراد استبدالها (اشْخَاصَة) ، ويكون قطعها وإعداد أخرى مثالة لها وتركيبها ليس أمراً يسيراً . قد تكون (الشْخاصة) صحيحة التركيب من الأسفل ، لكنّها مختلة من

الأعلى! عندها يستعصي تركيب الفتيلة القطنية التي توضع بين طَرفي كلّ لوحين، لتمنع تسرب الماء إلى داخل السفينة، فيستلزم إعادة قطع (الشخاصة) وتركيبها. فعلتها دون خلل، ونلتُ رضى الأستاذ عبد الحسن.

ومرّة كلفني عمّي بتركيب (اشخاصة) في مؤخرة السفينة (الرُكْعَة) عرفتُ لاحقاً أنّها اختبار لي!! كانت (الشخاصة) لوحاً صغيراً طرفه الأمامي مستقيم، والخلفي به التواءٌ يسير!! بذلتُ فيها مجهوداً كبيراً جداً حتى استوتْ مكانها.

كنتُ أنتقلُ بين يدي القلاّفين، أتعلمُ عند كلّ واحد أمراً جديداً في القلاّفة دون ملل، وما أتقنه ويشهد الأساتذة عليه أقوم بتعليمه للصبية من بعدي! يُشبه نظام الحوزة الدينية بعض الشيء. يكون الفرد تلميذاً ومعلماً في آنٍ واحد. أدركت بعد حين أنّ العمل الفعلي في (الوْشَارات) وليس في (العْشَارات)!! إلاّ أنّ المردود المالي في الثاني أكثر، فلا يأخذ القلاّف في (الوشار) غير دينار واحد فقط في اليوم كلّه، هذا إذا لم تكن هناك جنازة في الحيّ بعد الظهر!! وكثيراً ما ترك القلاّفون عملهم في (الوشار) وانتقلوا إلى (العشار) برغبة منهم، أو طلب من صاحب عَمارة أخرى غير التي يعملون فيها، أو بأمر من صاحب العَمارة ذاتها. وإذا كان (العشار) طارئاً عَمِل بعضهم في يوم الجمعة، لكنّ حدوث ذلك نادر. لذا كان قلافو (العشار) أكثر من قلافي (الوْشار)! مع أنّ الأوّل متعب، وفيه –أحيانا– مغامرات مع ماء

البحر والنَّوِ العالق بألواح السفينة!!

للقلاف الحقّ في قطع علاقته بصاحب العَمارة في الحال ، وأخذ مستحقاته والانتقال إلى عَمارة أخرى ، أو العمل في (العْشار) ، والعودة متى رغب بعد أن يأذن له صاحب العَمارة . وكلّ ذلك لا يُغيّر من علاقات القلاّفين ببعضهم البعض خارج وقت العمل في الحيّ .

يعملُ القلاّفون كلّ يوم من بعدِ شروق الشمس مباشرةً حتى الغروب ما عدا يوم الجمعة ، لا يتوقفون إلاّ لأكلٍ أو قضاء حاجة ، أو لصلاة الظهر ، التي يؤدونها جماعةً في مساجد الحيّ ، ولكن بعد تناول وجبة الغداء في العَمارة . ويتسلّم القلاّفون رواتبهم قبل غروب شمس كلّ يوم خميس في العَمارة ولا تسجيل!! والذي يتخلّف منهم يأتي مجلس صاحب العَمارة صباح يوم الجمعة .

تظلّ العَمارة عامرة بصاحبها والقلاّفين ، ولا تُغلق إلاّ لحدث غير عادي . ففي (سنة الحَطب) هكذا يسمونها ، حدثت أزمة أخشاب غريبة . لم يكن هناك نقص فيها بل فائض كبير يكفي لسنوات قادمة!! قلّ سعرها في السوق كثيراً ، فأصيبت عَمارة الحاج محمد علي- التي كانت تبيع الخشب وتبني السفن في آن- بنكسة مالية ، وصار تجار الخشب يطالبون الحاج محمد بتسديد ديونه فلم يستطع! كان هناك حلّ واحد فقط ، لكنّه مؤلم ، هو بيع العَمارة بما فيها . تألّم كثيرون من أجله ، لكنّ القلاّفين لم يغفلوا عن مساندته قدر المستطاع . ولم يستطع الحاج علي بو حسن تسديد ديونه إلى تجار

الأخشاب ، فرهن أرضاً كبيرةً له جوار عمارته ، سرعان ما جاء وقت التسديد وليس مع الحاج بو حسن مبلغ الرهن ، فأُخِذَت الأرضُ منه . صار طريح الفراش سبعة أيام ، وأوشك على الموت لولا وقوف القلاّفين إلى جانبه . وفي يوم تفاجأ القلاّفون بدخول امرأة إلى عَمارة أبي الحاج ناصر بن محسن ، فنساء الحيّ لا يدخلن إلى (العَماير) مهما كان الأمر . كانت المرأة ، حافية القدمين ، كلها سواد ، تشير بيدها ولا تتكلم ، ولا يرى أحد وجهها . أرسل أبي إليها أحد الصِبْية فعاد يخبر إنّها زوجة القلاّف الحاج سلمان بن شعبان ، وإنّها تبكي! كاد الحاج سلمان ينهار لّما سمع بالخبر فتحلق القلاّفون حوله يهدّئون من روعه ، ويساندونه . لقد انتهى موعد فكّ رهن بيته ولم يسدد مبلغ الرهن للتاجر الحاج مهدي أبو القماش ، أحد أكبر تجار اللؤلؤ والذهب في السوق .

رهن الحاج سلمان منزله قبل عامين ليتمكّن من زيارة العتبات المقدسة في العراق ، بعدها يسدد مبلغ الرهن للحاج مهدي أبو القماش ، لكنه لم يستطع!! قيل إنّ الشرطة أخلت منزل الحاج سلمان تماماً من كلّ حاجيات عائلته ، وإنّ أحد القلاّفين استضافه وعائلته مؤقتاً في منزله . لم يكن منزل الحاج سلمان هو المنزل الوحيد المرهون في حيّنا!! ولم يكن الحاج مهدي أبو القماش هو العتِر الوحيد هنا!!

هذه السفينة الأولى التي أعمل فيها من وَضع (البِيص) حتى يوم (الكِلْفَاة) . فرحُ أبي بي أكثر من فرحه بإنجاز السفينة . أتى

مجموعة كبيرة من رجال دور الطرب لجرّ السفينة إلى ماء البحر . وُضِعَتْ أخشابٌ اسطوانية الشكل متينة أسفل (بيص) السفينة بعد المبالغة في دهنه (بالوَدَچ) ليسهل عملية زلق السفينة فوق الأخشاب ، بينما ربطت السفينة بحبل غليظ في مقدمتها مُرِّرَ في بكرات كبيرة تساعد في سحب السفينة ، وثُبّت رأس الحبل في مرساة كبيرة في عرض البحر الذي يجب أن يكون في حالة جزر . يسحب الحبل عن طريق البكرات ، بينما يدفع رجال أشدّاء السفينة المائلة على طرفها الأيسر بكلّ قوتهم ، يرفعون ثيابهم حتى سرَّتهم ويثبتونها . أيديهم للغناء والعناء مستمدين حماسهم من مغنٍ يسمونه (النّهام) وآخرون بالطبول الكبيرة . كان يغنّي للبحر ، وللسفينة ، ويدعو الله أن يسلّمها ، ويسلّم ركّابها . ستظل السفينة في ماء البحر يوماً أو يومين لفحصها ، والتأكد من سلامتها ، ثمّ تنقل إلى رصيف الميناء (الفُرضة) لتثبيت ماكينة المحرّك فيها . رَبَتَ أبي على كتفي وقال :

- «إنت ألحين قلاف يا موسى بس بدون بحر» فضحكَ القلاّفون من حَوله ، واستمتع قلاف بتلاوة قوله تعالى(فأوحينا إلى موسى أن اضربْ بعصاك البحر) وهو يهزّ رأسه فخراً بي» .

٨

نَعْتٌ

لم تُصبح قَلاّفاً ياعباس ، ولم يطلب منك أبوك أن تكون مثله . انتهى أبوك فانتهت القلافةُ في بيتك . كان آخر عهد أدوات عمله تخزينها في برميل كبير وإحكام غلقه : مطرقتان ، وثلاثة أحجام من مثاقيب الخشب (مَجَادِيح) ، واحدها (مِجْدَاح) ، عدد من المناشير ، ثلاثة أزاميل ، قدوم مازال حاداً ، ضاغط أخشاب (سَكَني) ، حبل أبيض . وعندما تقدّم قلاّف لشرائها لم يعبأ أحد به ولا بها . لا أحد يعرفُ أين صارت!! يستهويك نادي الحيّ الثقافي قرب (عَماير) القلافين ، وتتمنى لو تستطيع أن تزوره كلّ ليلة ، لكن أباك لا يسمح لك بالخروج ليلاً تماماً مثل الكثير من الآباءُ -في حيّك- الذين يمنعون خروج أولادهم الكبار ليلاً . كان الليل لصعاليكه ، وللرجال (الزْقِرْت) من حيّك ، وللذين ينتظرونه ، يتخذونه ستراً إلى الحيّ الشرقي ، حيّ الأجاويد ، وللسمّار ، وللّصوص ، ولحماة الحيّ من اللصوص!! أصبح

الخروج ليلاً علامة على واحدة من كلّ ذلك ، ولا شيء غير ذلك :

«بسم الله الرحمن الرحيم

إلى حضرة الفاضل سكرتير نادي النعيم الثقافي المحترم

تحية طيبة وبعد :

أحرر هذه الرسالة

بأني أودّ الانسحاب من النادي وذلك بعد تسديد الاشتراكات الشهرية وإني مستقيل من عضوية النادي من هذا الشهر وفي ذلك سبب هو عدم سماح والدي بالخروج من البيت في الليل وأرجو أن تسمحوا لي ولكم مزيد الشكر والاحترام .

وختاماً تقبلوا مني فائق الاحترام والتقدير

المخلص أخيكم

عبدالحسين(. . . . . . .)

يناير ١٩٦٦م»

لا يجد أعضاء النادي حلاً له غير الصبر ، بينما يهزأ بعض الأعضاء بهؤلاء الآباء ويسخرون منهم ، ويذكرون نماذج أخرى ناعتينهم بالمتخلفين الرجعيين ، وكيف تغلّب بعضهم على هذه الظاهرة في عوائلهم على الرغم من سخط الآباء الغاضبين :

«بسم الله الرحمن الرحيم

١٩٦٦/٤/٥

السيد رئيس نادي النعيم الثقافي المحترم

تحية واحتراماً وبعد

أُفيدكم علماً بأني أود الاستقالة من عضوية النادي ابتداءً من الشهر المقبل ٥ مايو ٦٦

بعد أن أدفع جميع الاشتراكات الشهرية

والداعي إلى استقالتي ١- هو أن والدي لا يسمح لي بالخروج من البيت في الليل ٢- عدم استطاعتي دفع الاشتراكات الشهرية .

٣- عدم رغبتي في النادي

هذا وتقبلوا تحياتي واحترامي

جرى وحرر في ٦٦/٤/٥

التوقيع

السيد جعفر السيد(. . .)»

كان عليك أن تخترع عذراً كلّ ليلة لتكون في النادي . لا تكمل وجبة عشائك ، تغادر مسرعاً مستأذناً الخروج لقضاء حاجتك الطبيعية فيلحق بك أخوك . تشقّان طريقكما ضاحكِين في الظلام نحو النادي لمشاهدة التلفزيون الثالث في الحيّ كلّه!! يرمي أخوك سنوراً أسود بحجر لا يُرَى منه إلا عيناه ويقول «هذا مو سنّور هذا جنّي»!! فيدخلك الخوفُ وترى كلَّ سنور أسود جنياً!! تلتقي هناك بعمّكَ الذي خاض معركة كلامية صغيرة لتأسيس هذا النادي مع أصدقائه

على المعارضين في حيّك قبل تسع سنوات فنُعِتَ بنعوت شتّى : شيوعي ، علماني ، مُلحد ، بعثي ، فاسق ، فاسد ، (بُونيان) ، (خَراب) ، (گُوري) ، نصراني ، (جَهودي) . . . فلم يكترثْ . شيوعي لأنّه لا يُصلي! وعلماني لأنّه يحثّ الشباب على الدراسة في جامعات العراق ومصر ، ومُلحد لأنه شيوعي!! وبعثي لأنّه يزور العراق بلباسه الأفرنجي ولا يزور الأماكن المقدّسة فيها!! وفاسق لأنّه يتظاهر بسيره ليلاً نحو الحيّ الشرقي ، و(بونيان) لأنّه يتبوّل واقفاً في الحمام!! و(گُوري) لأنّه لا يصلي أيضاً! ونصراني لأنّ شجع على الاحتفال برأس السنة الميلادية مرّة واحدة فقط في النادي! وفاسد لأنّه يلعب الشطرنج ، والشطرنج حرام ، وفي القول المأثور «الناظرُ في الشطرنج كالناظر في فَرجِ أمّه» . سيكون من السهل على المعارضة محاربة أعضاء النادي إذا أقنعت الآخرين أنّ النادي ضدّ الدين!! وليس أيسر من تلك النعوت الساخنة!! كلّما صار الشباب على غير آبائهم ، وخرجوا على ما كانوا يعدّونه ثوابتاً نالوا تلك النعوت . اخرجْ تجدْ نعتاً بانتظارك!! قال رجل صالح في المعارضة :

- «أما قرأتم قوله تعالى (ويأتون في ناديهم المنكر) . . يلعبون القِمار ويشاهدون الصَنم التلفزيون ، وتساعدهم (الكُمْبَنِي) على الفسق؟!

فتحت المعارضة -لاحقاً- مكتبةً قرب منزل أحمد أبو ربيع تُنَافس بها النادي فلم تجد لها زوّاراً غير نفر قليل سرعان ما تحوّلوا إلى النادي!! فشلت الفكرة كلّها!! لم تكن المعارضة تعي أن النادي ليس

مكتبة فقط!! هذا شأن أيّة معارضة!!

تأسَّس النادي بحلقة تعليم ليلي لمحو الأمية في مأتم الحيّ سنة ١٩٥٧ ، سرعان ما تطورت الفكرة إلى مقرٍّ صغير خشبي (صندگة) على سطح بيت أحد المؤسسين الذي تحمَّس للفكرة وشجّعها . كتب الأستاذ محمد حسن السيد علي رسالة إلى سكرتير الحكومة مستر (سميث) الذي خلف السير (بلجريف) ، فجاءت الموافقة :

«حكومة البحرين

السكرتارية

الرقم ٥٣٤/٥٠-٤

٣٠ يوليو ١٩٥٨

حضرة الفاضل المكرم السيد محمد حسن سيد علي المحترم

رئيس نادي النعيم الثقافي في البحرين

بعد التحية والاحترام

إشارة إلى رسالتكم بخصوص إجازة لفتح ناد باسم نادي النعيم الثقافي بمدينة المنامة . نفيدكم أن الحكومة توافق على فتح النادي المذكور حسب الأغراض والأهداف المذكورة في القانون الأساسي المقدم لنا بكتابكم الآنف الذكر .

وختاما دمتم محروسين .

سميث

سكرتير حكومة البحرين»

يبتسمُ عمّك لك ولأخيك عند مدخل النادي ويخبركما بأنّ شركة النفط ستعرضُ ليلة غد فيلماً وثائقياً بين باب النادي وعَمارة الحاج ناصر بن محسن لصناعة السفن ، ويحثكما على المجيء فتفرح لدعوته وترحيبه :

«شركة نفط البحرين المحدودة

العوالي- البحرين

حضرة السيد رئيس نادي النعيم الثقافي المحترم

بعد وافر التحية ،

يتشرف قسم العلاقات المحليّة بدائرة العلاقات العامة التابعة لشركة نفط البحرين المحدودة(بابكو) بإبلاغ سيادتكم أن السينما المتنقلة سوف تقوم بزيارتكم بغية عرض جانب من أفلامها الثقافية والاخبارية بناديكم ، وذلك مساء يوم الاثنين(ليلة الثلاثاء)الموافق ١٩٦٦/٦/٢٠ في الساعة الثامنة و النصف مساء .

وتفضلوا بقبول فائق الاحترام

المخلص

أحمد سعيد

عن رئيس العلاقات المحلية

حرر في ٦/١٣ سنة ١٩٦٦»

كان الجو رطباً إلا أنّ عرض الفيلم في الفضاء المظلم كان شائقاً

جداً . شاشة بيضاء وجهاز رمادي اللون عليه بكرتان : كبيرة وصغيرة تدوران معاً مخلفتان صوتاً لا يشغل أحداً عن المتابعة . يأتي مندوب شركة(بابكو) يتأكّد من عدد الحاضرين ليرفع تقريراً إلى المسئولين في العلاقات العامة بالشركة . لقي هذا المشروع معارضة ممّا جعل إدارة النادي تكلّف بعض أعضائها بأن يقفوا في زوايا متباعدة عن مكان العرض تحسباً لأيّ استفزاز ، أو الجهر برفض المشروع ، ولصق النعوت بأعضاء النادي . كان العَرض في نظر المعارضين سينما!! ولا يدخل السينما إلا فاسق ، أوشيوعي ، أو (بونيان) ، أو(خراب) ، أو(گوري) ، أو نصراني ، أو(جَهودي) ، عدو الله!!

يُراقبُك عمُّك كأنّه يتأكّد من دهشتك للصور وهي تتحرك تماماً مثلما هي في الحياة كلّ يوم! تتمنى لو تشرب الآن (بيبسيّة سوده) باردة كتلك التي يشربُها جدُّك الحاج رجب!

لم يكن النادي الثقافي مكتبةً فقط! في النادي كلّ الذي في الحيّ! تجاوز عدد أعضائه مائة وعشرين عضواً رسمياً مسجلاً من الحيّ والأحياء المجاورة ، ولا مانع من دخول غير الأعضاء من أيّ مكان . وللقلاّفين نصيب فيه ، فالقلاّف عبد الحسين السَنَد عضو نشط في إدارته . في فترة زمنية قصيرة جداً أسّس النادي له ثقةً كبيرة في نفوس الناس حتى صار البعض لا يستحي من الكتابة إليه حتى في الأمور الحرجة :

«ليلة الاثنين ١٩٦٣/٤/٢٢ الساعة التاسعة

صاحب السيارة (خضرة) (العالي) (. . . . .)- (. . . . .)
من التاسعة حتى الساعة حتى الثانية عشرة إلا عشر دقائق
بسم الله الرحمن الرحيم ٦٣/٤/٢٣
حضرة الفاضل السيد رئيس اللجنة بنادي النعيم الثقافي المحترم
تحية طيبة وبعد

بماذا أبدأ رسالتي هذه وبماذا أختمها ولكن فلأريح ضميري ولأكتب لكم هذه الرسالة وأنا في أشدّ الأسف .

ألا فاعلموا بأنّ المدعو إبراهيم (. . .) والمشترك في هذا النادي الثقافي قد قدّر أنّه يمكن أن يخدع ويتمادى في خداعه وهو لا يعلم بأنّه سيجيء يوم تُكتشف فيه ألاعيبه الدنيئة . أحضر سيارة فركبت وأنا لا أعلم بأنّه يضمر لي في نفسه الخبيثة شيئا كنت وأنا أعلم بأنّ النادي قد هذّب أخلاقه وقوّمها ولكن للأسف الشديد لم أكن أعلم إن السافل مهما هُذّب يظل على سفالته . ولا أطيل عليكم لم يكن بوسعي أن أفعل شيئا إلا الفرار . فررت منه ومَنْ معه وظلوا يطاردوني ولكني بعون الله قد استطعت أن أصل إلى الشارع . حتى وصلوا وصاروا يعتذرون إليّ وما كان في وسعهم إلا أن يفعلوا ذلك مخافة أن أفضحهم . فقبلت عذرهم وأنا أعلم إن من واجبي أن أحذّر وأنذر لئلا يحدث هذا الشيء مع أخ آخر لي في النادي . ويأخذني العجب حين أفكر كيف يضمّ النادي إليه مثل هذه الأشخاص السافلة فلا أجد حلا غير لتقويمهم وتهذيب نفوسهم . وأنا لا ألوم النادي فكم نصح

وكم بذل رؤساؤه في النصح ولكن أين للحمار أن يفهم ويسترشد ، وكيف نكون دعاية للنادي ومثل هذه الأشخاص موجودة فيه . ماذا تقول لمن يود الاشتراك في النادي! هل يخرج أم يشترك . وهو يعلم بأن هناك من يتجرأ ويتحدى قوانين وقدسية النادي .

وإنّي لفتى خجل من ضمّ أمثال هذا الشخص في هذا النادي الثقافي في ناد يريد الارتفاع بأمته وإرضاء وطنه . في ناد قد حمل رسالته يريد إكمالها وإني أنبأتكم وحذرتكم وأرحت ضميري فافعلوا ما بدا لكم . وإني أطالب حماية هذا النادي من مثل هذه الأشخاص .

وشكرا

المخلص

(. . . محمد . . .)

بعد هذه الرسالة قرر مجلس الإدارة طرد العضو(إبراهيم) من النادي ، ومنعه من دخوله حتى يعود إلى رشده . تطوّر مشهد إبراهيم وسارت به الحكايات في الحيّ كلّه حتى وصل إلى مسامع أبيه – أفضل نجاري الحيّ ، فنان في تخليق الخشب ، لا ينافسه أحد– فكتب رسالة ساخنة إلى إدارة النادي :

«١ محرم ١٣٨٣هـ بسم الله الرحمن الرحيم

إلى حضرة المحترم سكرتير نادي النعيم المحترم .

تحية طيبة .

اني الموقع ادناه (. . . .) والد المشـتـرك في ناديكم الموقـر إبراهيم الذي رفض من النادي حسب زعمكم انه قد ارتكب جريحة من غير اثبات ولا تحقيق وما كفاكم رفضه من النادي من غير اثبات حتى قمتم بغدركم وعملتم شي منافي للقانون الشرعي وضعتم اعلان في نفس النادي كي يقـرأه الطيب و الردي ولهـوا طبـعـا مـا يرضي الله فهدفكم الوحيد وغايتكم أن تخربون سمعتنا في البلاد وغيرها ولاكن إذا ما تثبتون على جريحة ابني المذكور انفا لك مدة ثلاثة ايام من تاريخ هذه الرسالة إذا ما تعطوني الافادة سوف أرفع الأمر إلى محاكم البحرين العدلية وجميع مصارف الشكوى واجرة المحامي تلزمكم ومن الواجب نشعركم في هذا الخصوص ومن انذر فقد اعذر وجنابكم الولد عارفينه هو انضم في ناديكم الموقر مدة سبه سنوات ما ظهرت عليه أي تهمة ولا تعدى على اي شخص والولد الذي يزعم انه قد طلب منه عمل ما يرضي الله هو قد انضم حدث ما يقارب ثلاثة شهور او اقل او اكثر من غير انزل الله وانتم احسن النظر

ملحوظه

طبق هذا النسخة بقيت عندي

لاجل الاحتياط

المتقدم اخيكم

(. . .)

النعيم
النجار ووالد المتهم

تعليق الإدارة : بحثها المجلس ليلة الجمعة ١٩٦٣/٦/٦

في الجلسة الطارئة (عن الرسمية)وقرر المجلس الاجتماع بالشخص ليلة الأحد ١٩٦٣/٦/٨ الساعة التاسعة والنصف»

لم تنتهِ القضية عند هذا الحدّ ، ولم يُجدِ الاجتماع به للنظر في الموضوع ، فقد دخل أبو إبراهيم في شجارات وحوارات كلامية ساخنة مع بعض مؤسسي النادي ، وأرسلت له الإدارة رسالة حازمة نَعتتْ فيها رسالته بـ (رسالة تهديد) ، وطلبت منه أن يتخذ ما يراه مناسباً في أية محكمة!! بعد أقل من ستة أشهر على هذه الحادثة يُرسل عضو آخر رسالة أخرى أشدّ جرأة حفاظاً على منجزات النادي والحيّ ، فيزيد من مهمّات الأعضاء :

«بسم الله الرحمن الرحيم

المنامة في ١٩٦٤/١٢/٢٩م

إلى حضرات الأخوان أعضاء مجلس الإدارة بالنادي المحترمين .

تحية طيبة وبعد

إنّه من الداعي أن أرسل هذه الرسالة العاجلة ، فأرجو أن تكون عندكم خبر بما تحتويه .

فيا أخواني بما أننا نعمل فلا بد من نتيجة كذلك نحن نعمل

لمصلحة النادي وإن سمعة النادي فوق كل شي فعلى كل عضو في النادي أن يحافظ على هذا المكان الذي يضمّه ويضمّ غيره من الأعضاء فإني عضو في النادي وأحب إلى النادي كل خير . وأن يكون في مستوى أعلى . الآن أدخل في الموضوع المطلوب . أخبركم بأن العضو (. . .) والعضو (. . .) دائما يذهبون إلى تلك العشّة أمام دكان (. . .) وأن فيهم يوجد شخص قد عمل في (. . .) عمل غير مرضي ولا يقبل به جميع ما في النادي كما في المادة ١٩ من قانون النادي ، وكذلك فإنّه يحاول أن يستولي على (. . .) وأن (. . .) يأخذ منه النقود بكثرة ويسهر معاهم إلى ساعة متأخرة من الليل ويذهب معهم في سيارة أجرة دائما وأن ذلك الشخص يتكلم بنفسه على هؤلاء ويصرّح بأنه يفعل فيهم ذلك أخير أرجو من جنابك النظر في هذه القضية التي تجعل هؤلاء الاثنين خطرا على النادي وعلى سمعة النادي عند كل الناس لأنهم من الأعضاء .

أخيرا أرجو أن يظهر الحق وسيروا والله في عونكم لرفع راية الحق .

والسلام

المخلص

العضو(. . .)

٢٩/١٢/٦٤م

يُتابع أعضاؤه أنشطته في كلّ مكان في العالم : لندن ، الهند ، دبي ، كربلاء ، إيران ، سوريا ، والقاهرة ، وبغداد ، والدوحة ، والرياض ، والكويت ، ولبنان ، والظهران ، وغيرها ، يسألون عن أصدقائهم أعضاء النادي ، وعن حالهم ، وعن المرضى منهم ، وعن الحيّ وأهله . يكون النادي جهة الاتصال بينهم وبين أحبائهم ومصالحهم في الداخل ، في خواطرهم كلّ يوم ، ويرفدونه بآخر أخبارهم فيما يُشبه التقارير ، أو الاستطلاعات . ومعظم هذه الرسائل تأتي محمولة عبر الأشخاص لا عبر البريد :

«بسم الله الرحمن الرحيم   النجف في ١٩٦٣/٧/١٣

حضرة الفاضل الإخوان الأعزاء أعضاء مجلس الإدارة المحترمين

تحية أخوية صادقة أبعثها لكم ولإخواني أعضاء النادي من أرض العروبة . . . ومن الأراضي المقدّسة التي تنبض بالحياة .

إخواني : أتمنى من كلّ جوارحي أنكم سائرون بالنادي نحو التقدم والرقي ، وأن اللجان تعمل بانتظام ومثابرة وقوة وخصوصا لجنة الثقافة واللجنة الخيرية التي وصل صداها إلى العراق ، والذين وصلهم الخبر يكبرون فيكم هذه الروح الإنسانية الطيبة ويتمنون لكم التوفيق .

إخواني الأعزاء . . أنا الآن بالنجف الأشرف وقد تركت الإخوان الزوار بأرض كربلاء : حسن(. .) وجعفر(. .) وحميد(. .) ومحمد علي(. .) وحاج عبدالله (. .) وعائلاتهم وهم في خير وصحة جيدة

يخصونكم بالسلام .

إخواني : كنت أنا والأخ حسن والأخ جعفر قلوبنا معكم ونتمنى في كل لحظة أن تكونوا معنا أو على الأقل بعضكم بشرط أن تكون معكم سيارة الأخ محمد(. .) وهو يقودها في شوارع كربلاء المزدحمة بالمواكب والزائرين الذي ضربوا رقماً قياسياً هذا العام ، ويقول نبأ لوكالة فريق النعيم بأن الزائرين قد بلغوا حوالي ٢٠٠٠٠٠ نسمة(مائتين ألف زائر) هذا وقد بعث لنا مراسلنا القانوني بكربلاء وقال إنّه لم يشهد مواكب منذ قيام الجمهورية كالذي شهدها هذه المرّة ، وأضاف قائلا : إن هناك فرق شاسع بين السمع والمشاهدة ، فالعراق يتمتع الآن بالهدوء أكثر من أيّ وقت مضى بعكس ما كنا نسمع من حملات التشويه والدعايات الكاذبة .

إخواني : إنّ الوالد يخصّكم بالسلام وأرجو إبلاغ سلامي الأهل والإخوان وجميع أهل الفريق وخصوصا أعضاء النادي

وتقبلوا تحياتي

أخوكم

محمد حسن»

سيعرفُ حيّك كلّ خبر صغير في هذه الرسالة خلال ساعات فقط! أليست من النجف الأشرف؟! يراسلون النادي أكثر ممّا يراسلون أهاليهم ، وتصل تحياتهم إلى أحبائهم عبر النادي . كأنّ النادي يؤجج

شهوة الجسور بين الأحباء ، ويحمي مفاتيح البشارات للأهل والأصدقاء . ما جاءت رسالة عليها شكل المسافرين إلا أسفرت بمعاني الدروب ، وشيء من أخبارهم ، وروعة قندهم وقناديلهم . . وجودهم قند ، وغيابهم فَقْد :

«١٩٦٧/١٠/١٢

بسم الله الرحم الرحيم

حضرة الفاضل الأخ رئيس نادي النعيم الثقافي المحترم

تحية طيبة وبعد

السؤال عن صحتكم جعلكم الله سالمين . وصلت دبي يوم السبت ٦٧/١٠/٧ ونزلت في فندق يسمى شطّ العرب وليس فيه عربي إلا اسمه فصاحبه وعماله عجم والكلام معهم بالإشارة الليلة بخمس روبيات والتسبوحة بروبية طبعا مفتاح الحمام في جيب صاحب الفندق لا يفتح الحمام إلا بعد تسجيل اسم من يريد أن يسبح يوجد في دبي مكتبة عامة محترمة ذهبت إليها كما يوجد فيها حديقة حيوان ممتازة الأكل رخيص التجارة فيها قوية لأن جميع الإمارات الساحل المتصالحة تأخذ حاجتها من دبي وحتى مسقط وعمان أيضا ولكن المحزن المؤسف أن الأجانب فيما يشكلون أكثرية ساحقة لا أغال إذا قلت ثمانية وتسعين في المائة فالتجار والعمال وحتى باعة الخضرة والسمك واللحم من هنود وإيرانيين إذا التقيت بعربي في الشارع كأنك قد رأيت تحفة ثمينة لا يوجد سوى مقهى

واحد به تلفزيون يملكه واحد لبناني وهو ملتقى العرب في الليل الحياة فيها حلوه بعض الشي ذهبت يوم الاثنين إلى الشارقة المسافة ربع ساعة في السيارة أو أقل أحط من أحط قرية في البحرين استقمت نصف ساعة ورجعت سافرت يوم الثلاثاء إلى أبوظبي أجرة السيارة ٢٥ روبية المسافة ثلاث ساعات متواصلة لا يوجد بها فنادق نزلت من السيارة في مقهى هندي تعرفت فيه على اثنين من البحرين من قرية سترة وهم خريجي الثانوية أحدهم عاطل وهو في أبوظبي من مدّه أكثر من شهرين والثاني موظف في دائرة العمل والعمال أخبرتهم إني وصلت الآن ولا يوجد لدي محل أسكن فيه فذهبوا معي إلى محل به ثلاث صندقات وبرستج الصندقات بها عراقيين وإيرانيين وبحارنه من دبي من أصل بحراني والبرستج يوجد به اثنين فقط من البحرين واحد من أصل عراقي والثاني من أصل بلوشي اتفقت معهم على أن أسكن معهم أجار البرستج ٦٠ روبية في الشهر طبعا صاحب المحل مسامحنهم الأعمال في أبو ظبي كثيرة لأنّ أبو ظبي تخطط من جديد الفلسطينيين واللبنانيين مسيطرين على كل الأعمال أصحاب البلد (. . .) وإذا دعمته أو دعمك في السوق قال لك (الِهْرم) وإذا أراد أن يوقف سيارة قال لصاحبها (حُوُ) كل شي فيها غالي ذهبت يوم الأربعاء إلى دائرة العمل والعمال والذي دلني على الدائرة هو أبو دريس العضو الذي معنا في النادي يوجد في الدائرة اثنين موظفين من البحرين الأوّل أخبرتك عنه في أول الرسالة والثاني يسمى

إبراهيم الصباغ دارس في البحرين ولندن الاثنين طيبين اتصلوا بالمسئول في الدائرة وكتب لي رسالة أمر تشغيل إلى شركة باسمي شركة اسكوت الانجليزية لديها أعمال كثيرة فذهبت بالرسالة وطلبوا مني شهادة فأعطيتهم الشهادة فأوعودني على العمل يوم السبت ١٤ /١٠ والراتب حسب الكفاءة والعمل في قصر جديد للحاكم على الطراز العربي والغربي الماء يأتينا بواسطة أنابيب من الساعة الرابعة ليلاً(فجرا) حتى الساعة السابعة صباحاً وبعدها ينقطع أما في السوق فيباع الماء على المقاهي والمطاعم البيب(البرميل) بروبية يجيبونه العجم على حمير يوجد بها سينما واحدة الجلوس فيها على الأرض الأفلام هندي أصحاب المطاعم هنود الأكل كله بزار يكلّف في الدخول والخروج . أخيرا أبلغ سلامي الأخوان أعضاء مجلس الإدارة وأعضاء النادي حاج علي (. . .) ومصطفى وحسن (. . .) وعلي (. . .) وعبد الله (. . .) وحسن وعبد الله (. . .) وكافة الأخوان أبلغ سلامي الأخ عيسى (. . .) وصافحه نيابة عني أرجو له الشفاء العاجل وأخبرني عن صحته والأخ محمد (. . .) وكافة الأهل والأصدقاء والسلام عليكم ورحمة الله

إذا أردت أن ترسل لي رسالة أرسلها على
العنوان التالي
أبو ظبي – دائرة العمل العمال ص ب ٢٦١
بواسطة حسن أحمد جاسم

أخبروني عن أحوال النادي

التوقيع

عيسى علي (. . .)

يقرأ أمين السرّ رسالة (عيسى) فيضحك الأعضاء قليلاً ، ويفتخرون . صار النادي مصدر معلومات لا يستهان به ولا بها . يقترح الرئيس التعليق على رسالة (عيسى) متمنياً له رحلة موفقة ، وأن يجد العمل الذي ترك عائلته وأولاده الخمسة من أجله . بعد أسبوعين عاد (عيسى) إلى الحيّ بعد أن أنهكته الحمّى (الانفلونزا) هناك ، فاعتبرها علامة شؤم! . . . يستعد أمين سرّ النادي لقراءة رسالة عضو آخر :

«١٩٦٧/١٠/٧

بسم الله الرحمن الرحيم

إخواني الأعزاء رئيس وأعضاء نادي النعيم الثقافي المحترمين

تحية طيبة وبعد

يسعدني ويطيب لي أن أحرر هذه الرسالة لأحيكم جميعاً وأزف لكم تحياتي لكم جميعاً بالتوفيق .

تحياتي وتمنياتي القلبية هذه أبعثها لكم من أرض النجف الأشرف مدينة العمل والفضيلة مدينة بطل الإسلام الخالد الإمام علي عليه السلام .

إخواني الأعزاء مهما طال بعدي عنكم فإن قلبي معكم

وأحاسيسي بينكم وبهذه المناسبة أوصيكم بالالتفاف حول مجلس الإدارة والمسئولين والتعاون والتآزر والقيام بكافة مسؤلياتكم على أحسن وجه للنهوض بهذه المؤسسة الاجتماعية حتى تؤدي رسالتها الخالدة على أتمّ وجه فبالاتحاد والتعاون يتم ما تصبون إليه وفق الله الجميع لما فيه الصالح العام .

ختاما لكم مني أعطر التحيات وأطيب التمنيات ودمتم

لمحبكم

أحمد السيد

النجف - العراق

كلية الفقه»

تَمنّى له الأعضاء دراسة موفقة ، وأن يستمر في التواصل مع النادي من النجف الأشرف ، بينما يسأل أحدهم عن كلية الفقه التي لم يسمع بها ، فينبري له عضو آخر قريب من أحمد السيد يجيب على سؤاله بإسهاب . لم تنقطع رسائل الأعضاء في الخارج ، وهي أكثر ما يُرسل إلى النادي :

«١٩٦٩/٨/٢٢

بسم الله الرحمن الرحيم

إلى السيد سكرتير نادي النعيم الثقافي المحترم

تحية عربية معطرة برائحة زكية

عزيزي : بلّغ سلامي إلى جميع أعضاء مجلس الإدارة المحترمين وكذلك أعضاء النادي

لقد أرسلت رسالة في البريد Box :500

وذكرت في الرسالة أن ترسل لي الجريدة الأسبوعية فلم أحصل على جواب من عندكم ولم أعرف السبب فقلت في نفسي ربما أعضاء مجلس الإدارة لم يوافقوا على ذلك

إذا كان هذا السبب استلم مبلغ من يد الأخ عبدالله علي (. . .) واشتر هذه الجريدة وأرسلها على أي طريق

فأنت تعرف لا يوجد في الهند جريدة عربية وكذلك لا نسمع أية إذاعة عربية لهذا السبب طلبت منك الجريدة . هذا والسلام

المرسل أحمد علي (. . .)»

تبدو غرفة الاجتماعات في ليالي الخميس من كلّ أسبوع أشبه بمجمع لروافد الأخبار من الحيّ كلّه ، وإلى جانبها الرغبات والأمنيات ، وقد تتحول إلى جنّة ضحك جميلة ، وقد تسخن كثيراً حدّ الوجع ، ويتمنى الأعضاء المجتمعون لو أنّ على بابها مصباح أحمر كالذي اقترحه عليهم مرّةً العضو(حسن علي . . .) في رسالته :

«بسم الله الرحمن الرحيم

إلى حضرة أعضاء مجلس الإدارة المحترمين

بعد التحية وفايق الاحترام

أقدم إليكم هذا الاقتراح عسى أن يكون صالح في نظركم وإليكم

الاقتراح :

١- أن يكون على باب مجلس الإدارة مصباح باللون الأحمر ويستعمل عند الجلسات الطارئة والرسمية .

٢- وتجعلوا جميع اللجان تكون جلساتهم في مجلس الإدارة بدلاً من حجرة الاستقبال .

وأن يكون هذا المصباح مُولِّع عند كلّ جلسة

والسلام عليكم وفقكم الله لما فيه الصلاح

المخلص العضو

حسن علي(. . .)

١٩٦٥/١/٢٦»

فمنذ هذه الرسالة صار المصباح الأحمر طرفةَ الاجتماعات واللقاءات!! سموه (مصباح حسن) بدلاً من (مصباح علاء الدين)!! وإذا مرّت أزمة قال بعضهم (مولِّع)!! كان أمين السرّ يتعب أحيانا من قراءة الرسائل ، ويعود بعض الأعضاء مهمومين بما كَشفته لهم ، أو أشارت إليه من قضايا الحيّ الذي لا يفتر :

«١٩٦٥/٦/٢٤

بسم الله الرحمن الرجيم

السادة / رئيس وأعضاء مجلس الإدارة المحترمين

تحية واحتراما وبعد

فأودّ أن ألفت نظر السادة الإعضاء إلى أن مديرية التربية والتعليم على أبواب العطلة المدرسـيـة والمديرية أوشكت الانتـهـاء من بناء المدرسة المخصصة للبنين وكما أوعدت المديرية سلفا ببناء مدرستين واحدة للبنين والأخرى للبنات في منطقة النعيم ، ونظراً لما لمدرسة البنات من الأهمية وحيث أن مدارس البنات بعيدة عن المحلّة مما يدعو الكثيرين إلى عدم إرسال بناتهم إلى المدراس فالرجاء إلفات نظر المديرية إلى هذا الأمر . وحيث ان النادي هو المؤسسة التي وقع على عاتقها المطالبة بتنفيذ هذه المشاريع التي تعود بالنفع العام على أبناء المحلّة . وختاماً أرجو ان يكون طلبي موضع عناية والتفات مع الإسراع في بحثه وتقديم طلب إلى المختصين من أجله وشكرا

المخلص

أحمد السيد(. . .)»

لم يستطع أبوك أن يعصي أوامر جدك المُولَع بالتاريخ منذ الخلافة : «البنات عندنا ما يدخلون مدارس الفساد والموسيقى والرقص والرياضة المايعة . . البنات ليهم البيوت تصونهم»! ولم يستطع أن يرى بناته أخواتك نسخاً من أمهاتهن أميّات! يجهلن القراءة والكتابة فيجهلن الحياة ، ولا نعوت عمّك إلى أبيك بالمتخلّف الذي يعيش في أمراض الجهل! فلما وصلت ابنته الرابعة سن المدرسة أدخلها سرّا ، وطلب من أمّك إخفاء كلّ علامات التعليم عليها!! هل كانت فكرة

عمّك؟! كانت المشكلة كيف يتّم توضيح ذلك لأختك الصغيرة؟! أن لا يراها جدك تحمل كتاباً أو دفتراً أو حقيبة ، أو حتى قلماً! كيف ستُخفي قدرتها على الكتابة والقراءة؟ الطفل لا يحتمل إخفاء ما لم يستطع إنجازه الكبار! ستكون مصيبة أبيك غير عادية!! كان اليوم الأوّل لأختك صعباً جداً ! انتظر الجميع مغادرة جدّك القلاف إلى عمله في (عَماير) القلافين ، فأخذتها أختك الكُبرى إلى المدرسة يُزيّنها مريول (خاكي) اللون و(أَبّةٌ) خضراء كأنّها نصفُ وردة ، وشرائط خضراء تُزيّن جديلتين صغيرتين . في الطابور الصباحي بكت أختك الكبرى ولم تحوّلْ عينيها عن أختها ، قالت لها معلّمة تعرفها : «لو تعلمتِ لكنتِ معنا هنا»!! عادت أختك للبيت فرحةً مكسورةً ، تروي لأمّك ولجدتك كيف كانت أختك الصغرى تقفُ في الطابور .

في هذا اليوم لم تستطع أختك الكبرى مساعدة أمّك في غسل الثياب المتسخة في ماء (العين) القريبة من مسجد (شيخ يوسف) . يسمونها (العين) ولم تكن عيناً نابعةً ، بل مبنىً أبيض بنته (إدارة إسالة المياه) من قسمين : أمامي للنساء ، وخلفي للرجال . لم يكن على القسمين باب بل بُني بهندسة لا تسمح للناظر فيه برؤية الجالسات إلى حنفيات الماء لكن لا تمنع سماع أصواتهن في قسم الرجال . تخرج النساء إلى (العين) صباحاً يحملن (طشتاً) على رؤوسهن ، تكومت الثياب المتسخة فيه . تجلس كلّ واحدة إلى حنفية ماء لا يتوقف ماؤها إلا ساعة مغادرتهن! يتحدثن في همومهن اليومية

وما جرى أمس ، وما قد يجري في عرس قريب!! ولا تخجل بعضهن في السؤال عن أسباب زيادة غسيل إحداهن اليوم عن أمس ، والتغامز والضحك حول ما جرى البارحة!! وقد تتأفف إحداهن من زيادة غسيلها ، وأنّ عليها الرجوع بسُرعة إلى قِدْرِ الغَدَاء الذي وضعته على نار هادئة . في هذه (العين) لا تصطحبُ النساء أطفالهن من غير سبب!! ولا يكون هذا السبب إلا تبولهم في فراشهم ليلاً . وما إن ترى النسوة الطفل حتى يضحكن ، ويسألن متيقنات : «أكيد مغرّق المرقد البارحة؟!» بينما تظل الأم تتحدث عن (حليبة) ابنها حتى المغرب!! كانت النساء تسمين التبول في الفراش (حليبة)!! وعندما يدخل رجل للاغتسال في قسم الرجال (يَتَنَحْنَح) مرّات مؤكداً دخوله ، فتخفض النساء أصواتهن ، وقد يتغير حديثهن حتى خروجه . تحفظ بعض النسوة مواعيد زيارة بعض رجال الحيّ ، ويتعرّفن عليهم من صوت (نحنحتهم) : «أكُّو وصّل أبو عبد النبي»!!

أخذتك أمّك إلى (العين) مرّات!! ويوم طلب منك مدرس الرسم في الصف الأول الابتدائي رسم موضوع اختياريٍّ ، رسمت مبنى (العين) فرحاً ، لكن الأستاذ لم يعرف ماً معناه!! فلم يُلفتْ رسمك انتباهه ، ولم يستفزّه! ورسمت مبنى(العين) في الصف الثاني أيضا ، ولونتها بالرمادي بدلاً من الأبيض! كانت (العين) الوحيدة في الحيّ كلّه :

«بسم الله الرحمن الرحيم

١٩٦٦/٦/١٧

حضرات الأفاضل الأخوان أعضاء مجلس الإدارة المحترمين .

تحية عطرة ومزيد الاحترام

إنّه من دواعي سروري أن أبعث إليكم بهذه الرسالة راجيا منكم أن تنظروا في الموضوع بدقة وانتباه تام/ فإني ارفق بهذه الرسالة اقتراح وجيه ويهمني أن يكون مجلس الإدارة يقظ ويعمل به وينظر إليه من جميع الزوايا والنواحي . فإنني في هذا اليوم ومن مدّة غير وجيزة أخذت افكر به وهل يمكن أن أحققه . ففي هذا اليوم كنت ماراً (بدولاب . . . .) فسمعت همهمة وكلامات غير عادية فأرهفت السمع فرأيت صاحب البستان المذكور يتكلم مع امرأتين من أهل الفريق(الحي) كلام شاذ ويطردهم من أخذ الماء وهم يترجونه بذلك وهو ينهرهم بين الفينة والأخرى بكلام مسموع وإني قد استمعت إلى بعض هذه المشاكل من مدّة وكلنا يعرف بأن أهل الفريق يحتاجون إلى الماء والتغسيل وخاصة بعض البيوت التي يوجد بها ماء ضعيف . . فإنني قد لاحظت بان جميع الفرق والأماكن وكذلك القرى جميعا بها مكان خاص بالمياه ولغسل الثياب وتعمل به إحدى الدوائر الحكومية فهو مشروع حيوي له فائدته في كل ناحية فهلا لو تكرمتم بإرسال طلب لهذا المشروع الذي يفيد المجتمع وانكم قد عقدتم على الرفع بمستوى هذا البلد العزيز وأن تحاولوا رفع اسم هذه المؤسسة فأرجو ان يكون هذا الموضوع له بحث مهم راجيا منكم أن ترسلوا الجواب

وتخبروني عما قررتم عليه

أخيرا أتمنى لكم التوفيق في اداء رسالتكم على الوجه الأكمل . . ودمتم لأخيكم

عيسى (. . .)

تعليق الإدارة :

١- شكره على رسالته وشعوره .

٢- إرسال رسالة إلى دائرة إسالة المياه سوف تطلب وضع (توانكي) في البيوت .

٣- عين الماء ستكون مورداً لكل مار كما تسبب بعض المشاكل»

تستفيد المعارضة أحيانا من بعض الأحداث ، وتحاول جاهدةً تأليب الوضع على النادي . فعندما يجد بعض القلاّفين - في الصباح الباكر- زجاجات البيرة الفارغة على رمال ساحل البحر ، تَتهِمُ المعارضة أعضاء النادي مباشرةً!!

- «ما قلت ليكم من قبل (ويأتون في ناديهم المنكر)»؟! قال أهم أقطاب المعارضة متحمساً واثقاً مستنكراً .

- «بس يا حجي محمد كانت الزجاجات الخضره على الساحل مو داخل النادي»؟! قال شاب مدافعا .

- «الساحل يعني النادي . .اثنينهم فساد في فساد . . لا تكذب . . وهل التلفزيون الصنم بعد على الساحل ؟!» وهو يشير بأصبعه إلى وجه الشاب!

وأرسل عضو رسالة ذكر فيها تعمد تأخر بعض الأعضاء في غلق باب النادي بعد الأذان ، سرعان ما تسربت أخبارها للمعارضة :

«١٩٦٨م

بسم الله الرحمن الرحيم

إلى حضرة الفاضل سكرتير نادي النعيم الثقافي المحترم

تحية طيبة وبعد :

أرجو من مجلس الإدارة أن يلفت نظر الأشخاص الذين يتأخرون في غلق النادي بعد الأذان عند المساء .

العضو : عباس (. . . .)

شكرا جزيلا .»

ورأى بعض أعضاء النادي أن قلّة الاحتفالات الدينية التي ينظمها النادي أحد أهم وأكبر الأسباب في بدء زيادة النقمة على النادي وعلى إدارته! وأن منع الإدارة دخول الآلات الموسيقية إنّما هو خوفٌ من زيادة هذه النقمة وليس لأسباب مالية!

«بسم الله الرحمن الرحيم

حضرة الفاضل الأخ السيد/ سكرتير نادي النعيم الثقافي المحترم

تحية طيبة وبعد :

إنّه لمن المؤسف حقاً أن يتخلى النادي عن إقامة الاحتفالات الدينية ، وإنّ دلّ على شيء فإنما يدل على حقيقة مرّة هي أن نادينا لا يتقدّم بل يسير في طريق التأخّر ، فقبل أيام مرّت ذكرى مولد الإمام

علي (ع) ولم نحتفل بها لأننا أقمنا قبلها احتفالنا العام بمناسبة مرور ثمانية أعوام على تأسيس النادي وانتهز بعض هذه الفرصة للكلام على النادي وأعضائه لعدم إقامتهم لهذا الاحتفال الخاص بهذ الذكرى الجديرة بالاحتفاء ، وجاء رد بعض اعضاء النادي على هؤلاء النفر –حسب ما سمعت– :

* أن النادي لم يقم ذكرى مولد الامام علي (ع) لأن الوقت ضيّق حيث أن حفلنا العام صادف قبل ليلتين من ذكرى المولد إذ لا مجال للإعداد للإحتفال الثاني .
* أن ميزيانية النادي لا تتحمل إقامة جميع الاحتفالات الدينية وغيرها لذا فإن النادي قرر إقامة بعض الاحتفالات الدينية لا كلها بالإضافة إلى الاحتفال العام بذكرى تأسيس النادي .

وها هي ذكرى الإسراء والمعراج تكاد تمر وما من بادرة من مجلس الإدارة في إنه ينوي إقامة هذا الاحتفال أيضا . . والسبب طبعا هو الميزانية أيضا .

فكم حريا بمجلس الإدارة –حينما لا يقيم احتفال الاسراء والمعراج لجميع الفريق في المأتم– أن يقيمه داخل النادي للأعضاء فقط . . أو تكليف لجنة الثقافة اقامة هذا الحفل ما دام في النادي لجنة ثقافة ومن مهامها إقامة مثل هذه الاحتفالات . . . وهل (الميزانية) جواب مقنع؟ وإذا كان كذلك فلماذا أقيم هذا الاحتفال وأهملتم تلك الاحتفالات؟ وقال بعضكم :(لا يهم كلام الناس فلقد قالوا أكثر من

ذلك) ذلك صـــحـــيح ، ولكن إذا كـــان الكلام منطقـــيـــاً فـــإنّه يهم . . . .

إذا كان كلام الناس لا يهم فلماذا يعارض بعضُكم إدخال أدوات الموسـيـقى ونحـوها إلى النـادي . .أليس تجنبـاً لكلام النـاس او امتـداد ألسنتهم لتطال النادي؟

ختاماً أتمنى لكم جميعا التوفيق

وتقبلوا نائق تحياتي

أخوكم

مصطفى السيد

١٧ نوفمبر ١٩٦٥م»

سبقت هذه الرسالة رسائل أخرى تقترح أكثر من ذلك بكثير ، ولا ترضى بالاحتفالات الدينية وحدها :

«بسم الله الرحمن الرحيم

إلى سعادة سكرتيل (سكرتير) نادي النعيم الثقافي المحترم

تحية عطرة : وبعد :

أسرع من لمح البصر وفي أسرع وقت ممكن ، أرجو أن يتحقق هذا الأمل الذي أنويه ، واقـــتـــرح بهـــذه السنة الجـــديدة لادارة النادي المحترمين ، لما فيه فائدة تعم على جميع أعضاء النادي الكرام .

وهذا الاقـتـراح هو تشكيل لجنة باسم (اللجنة الدينيـة) وهذه اللجنة تكون مسئولة عن جميع الحفلات الدينية وفي نفس الوقت

تقوم بتشجيع الأعضاء على تعليم ما يحتاجون اليه من مسائل دينية وما صعب منها فان اللجنة تقوم بالاتصال بالعلماء للحصول على الحل الصحيح .

ايضا هذه اللجنة تجعل لها ليلة من كل شهر تجمع فيها الأعضاء لتعليمهم ما يجهلونه من وضوء وغسل وغير ذلك .

هذا وان الشرح في هذا الموضوع يطول فأرجو ان يتحقق املي في ذلك

ولكم مزيد الشكر

أخيكم

عبد المجيد(. . .)

تعليق الإدارة : سيُنظر في اقتراحك مستقبلاً»

لم يعمل (عبد المجيد) في شركة النفط (بابكو)! ويبدو أنّه قليل التفاعل مع الذين عملوا في هذه الشركة من أعضاء النادي ، أو رجال الحي وإلاّ لما كتب (سكرتيل) بدلاً من (سكرتير)!! كان أكثر أعضاء النادي يعملون في (بابكو) لذا استغلّ إداريو النادي هذه المسألة ليخاطبوا الشركة بالمساهمة في توفير بعض الخدمات لعمّالها من أعضاء النادي! استجابت الشركة للطلب سريعاً ، وصار بعض المسئولين فيها يزورون النادي! كأنّ العقول التي في النادي قد صنعتها الشركة نفسها!! وإلاّ من أين تأتي فكرة مخاطبة الشركة على هذا

النحو؟! أن تلاحق الشركة عمّالها وموظفيها بالخدمات أين ما كانوا؟! :

«السيد المدير العام لشركة نفط البحرين المحدودة المحترم

العوالي ، البحرين

١٩٦٣

تحية طيبة

نشكر شخصكم الكريم ولطف شركة نفط البحرين المحدودة على المنحة الطيبة البالغة قيمتها ٢٠٠٠ روبية لإنهاض وتقدّم نادينا . ونحن اعضاء النادي نشعر متأكدين أن هذه الذخيرة ستمكننا من التغلب على الصعوبات المالية التي نواجهها . وستثبت أنها دعامة لنجاحنا المقبل في القدرة على إضافة التسهيلات والإضاءات للأعضاء .

ونشكركم مرّة أخرى على مساعدتكم القيّمة ، كما نتوقع مثلها في المستقبل .

وتفضلوا بقبول فائق الاحترام

المخلص

عن نادي النعيم الثقافي

محمد حسن

رئيس النادي»

لم يكن هذا التبرع الأوّل للنادي من شركة نفط البحرين المحدودة (بابكو) فقد بدأت عنايتها بالنادي وأعضائه في ٢٤ فبراير ١٩٦٠ عندما أرسل مدير الشركة (McCULLOGH . A . H) مبلغ ألف (١٠٠٠) روبية وجهاز تلفزيون! ولم يكتفِ بذلك فأرسل شخصاً يُدرب أعضاء مجلس الإدارة على تشغيل واستخدام الجهاز!! وعليه صدر قانون في النادي يحصر تشغيل وإدارة قنوات التلفزيون في الأشخاص الإداريين الذين تمّ تكليفهم بذلك!! هذه الشركة كانت قد أجّلت تقديم أيّة تبرعات للنادي في ١٣ مايو ١٩٥٨ في رسالة موقعة من المدير نفسه!! كان موظفو (بابكو) من أعضاء النادي يعرفون شيئاً من مداخل الشركة وشيئاً من سياستها تجاه موظفيها أينما كانوا!!

أصبح موظفو (بابكو) من أعضاء النادي ثلاثة أقسام : الأوّل أُعجب بكلّ ما أتت به الشركة من نظام غربي أوربي في العمل والحياة ، فراح يطلب كل جزئياته ويتمثّلها ، وهو القسم الذي برع في تعلّم اللغة الإنجليزية حدقها ، وفهمها ، وشكّلت عقله ، وغيّرت تفكيره في الأشياء من حوله بدءاً من لباسه ، ومشترياته ، وتربيته لأولاده ، واهتمامه بتعليمهم وتربيتهم على غير سيرة الحيّ!! لقد استغرقتهم الحضارة الغربية وصاروا غير قادرين حتى على التحدث في الحي بلهجة تخلو من مفردات إنجليزية!! والقسم الثاني على نقيض الأول تماماً رفض حضارة (النصارى) رفضاً تاماً وصار يقاوم التأثّر الناتج عن الاحتكاك بالأجانب في الشركة ، وتأثّره الوحيد هو

اللباس الرسمي للعمل في الشركة وهو القميص والبنطال (الخاكي) اللون لكنه لم يستغنِ عن شماغه(الغِترة) الأبيض!! وثالث لم يرفض الحضارة الغَربية لكنّه لم يتلبّس بها تماماً ، وشأنه في العمل على غير ما هو في الحيّ تماماً .

بعد شهرين تقريباً أرسلَ العضو عبد المجيد رسالةً أخرى :

«المنامة ١٩٦٤/٣/١

إلى سعادة سكرتيل نادي النعيم الثقافي المحترم

أرجوك أن تلفة (تلفت) نظرك مع اخواننا اعضاء ادارة النادي عن الاقتراح الذي سبق لي ان تقدمة(تقدمت) به وهو لجنة دينية تقام في هذا النادي

هذا ولكم جزيل الشكر

والذي دعاني الى كتابة هذه الرسالة هو عدم ابلاغي عن ما قلت

هذا وارجو ان اتعرف هل انتم موافقين ام لا ، وانا مستعد لكي اعرفكم بان هذه اللجنة هي ابسط ما يكون فلا تكونون مرتبشين (مرتبكين) في ذلك

اخيكم

عبد المجيد(. .)»

- «ما قلت ليكم إن النادي خراب؟ وإن أساسه على المنكر؟ وكل أعضائه بونيان ما يصلون وشيوعيين حمير؟ ما في فايدة الأساس كلّه

مو عدل»!! قال المعارض الحاج محمد في ثقةٍ ، ثمّ تأوَّه .

يروي العضو المؤسس الحاج علي -رحمه الله- : «عندما نُقيم احتفالاً دينياً كبيراً يأتي الجميع حتى المُعارضون» !!!

تُبكّر في الخروج إلى البحر فترى جارك الشيخ حسن يستعدّ وعائلته للعودة إلى النجف لإكمال دراسته ، وقد تجمّعت النسوةُ عند باب بيته . كم كان هذا الشيخ خفيف الظلّ والروح ، لا يحتاج سوى كلمة «يالله» يكررها مراراً بصوته الهادئ ليدخل بيتكم ضاحكاً كعادته ، يسوّي شجاراً بين جدك وجدتك!! يُهدّئ من ثورة جدّك الذي ينعت جدّتك صارخاً بـ «يا عدوّة الرحمن» لأنّها لا ترضى بما يفعله بأموال أبيك!! كان أبوك يدّخر المال عند جدّتك استعداداً لبناء بيت جديد له جدران من الإسمنت والطوب بدلاً من جدران الخشب والسَعف ، فلا يتوقّف جدّك عن التصرف في بعضه بالسفر إلى الأماكن المقدّسة ، فلا ترضى جدّتك بذلك وتثور عليه . يسوّي الشيخ حسن الشجار الجديد ويضحك! يسرد الحكاية لأبيك ليلاً على ضوء القمر ويضحكان معاً!! كانت جدّتك الأقوى دائماً ، نعتها رجال الحي بـ(الشيخة) ، ونعتتها النساء بـ(الرئيسة) ، وأحينا بـ (أُمّنا) .

تُلقي نظرةً أخيرةً على صديق الحيّ عبد الأمير الشيخ حسن ، وتُتابع سَيرك . تضربُ ماء البحر الصَافي بيديك الصَغيرتين فتتغيّر كلّ الصور . . . إلاّ صورتك!!

٩

شَامةُ القَمر

ساحلُ بحر حيّك جنّة يا عبّاس . . الرملُ فيه خدُّ طفلة ، والحلزوناتُ تمرحُ ، تحمل أصدافها الملونة ، الجميلة على ظهرها ولا تنوء ، ترسمُ على الرمل خطوطاً متقاطعةً ، متصلةً ، ولوحات . رأيتُ حلزوناً جريئاً يقتربُ من حلزونة جميلة ، يغازلها ، يضع أطرافه الهلامية على أطرافها ، فلا يحجبان جنون الرمل تحتهما . فلمّا اقتربا أكثر ، عاودا الانفصال . رسم لها وردة الله على الماء ، وتهيأ ليرسمَ شامة القمر . ولما بدأتِ الشمسُ تغربُ رأيتُ الحلزوناتِ تذرعُ الماءَ الشفيف ، نحو الساحل مثل عشّاق ينتظرون هبوط الليل لباساً . . يتلابسون ولا يهتمون ، يتركون سلاماً لوردة الله .

لم تكن وردةُ الله تُشبه أحداً في الحيّ كلّه إلا الحبّ في العيون . جُنّت العيون بها ، فلم يقو أحد على إخفاء سيرتها . قيلَ رشم ، وقيل وشَمٌ . . تناقلتِ النساءُ سيرة عشقها سرّاً ، وتمنين لو يُشبهنها ، وتحسَّرن

عليها مثلما تحسَّرن على خاتون . بهجةُ خالٍ شديد السواد في هرم الذقن من جنّة الوجه ، وعينان لا تقويان على حبس كلّ هذا العشق . قُلْ هو الحبّ ، لم تقو وردة الله على حبسه فصار شامةً في القمر ، كلّما أشرقَ بالمساء حبستِ العاشقاتُ أنفاسهن ، وفقدن شهية الطعام . كانتِ الفتياتُ يُحِلن عشقهن إلى فكاهات حتى لا تنالهن العيون ، وأفواه نساء الحيّ ، إلا شامة القمر كانت في الحبّ سكينة الحلزون ليلاً . عابت النساءُ خَدَرها وقلن : دخلها القَهر ، وقلن : رهينة القمر ، وقلن : بها هوس الليل .

- «قلْ لي أحبّكِ أكنْ حلزوناً لا يرجعُ إلى المَاء» .

لا أحدَ يروي عن شامةِ القَمر غيرَ هذا الكلام ، فمِنْ أينَ كلّ هذه السيرة إذن؟! ومن أين يأتي الوجل المحموم المروي عن شفتيها؟ وشهقة عينيها؟ ورعشة زوايا فمها؟ والألم المستطيل أسفل الصدر؟ وكثرة تلفتها ، وتهافت جسدها؟ ولمعان القند في عينيها؟ ما لمحتها امرأةٌ إلا اشتعلتْ فيها أسئلةُ السيرة .

في مأتم النساء وقفتْ امرأةٌ ، تشدّ عباءتها وتخصّرها ، وتعدّ ماء الزعفران بينما تتوافد النسوةُ تباعاً ، ومعهن دموع ساخنة على مصرع لن يهدأ حتى تُسْكَبُ عليه دموعُ نساء العالم كلّه . كلّما تهدلت عباءتها شدّتها ، وأوثقتها أسفل إبطها الأيمن وخيوط الزعفران ترمي لونها بهيجاً في ماء لا يهدأ . . الزعفران يجمع النساء . . الزعفران يجمع البكاء . . تملأ المرأة كوباً معدنياً كبيراً بالزعفران . . ترفعه ثمّ

تعيد سكبه بهدوء ، مثل نار تدخل في نار وليس ثمّة هواء غير النَفَس ، والزبد الأصفر . كانت أكثر النساء صمتاً في المأتم ، وأكثرهن براعة في صنع ماء الزعفران . كلّما هَدأتْ خيوطُ الزَعفران حَرَّكَتها ، حتى ترمي ثقلَ لونها كلّه في الماء . فلّما ذاب بعض الثلج ، وتعرّق إناء الزعفران الفضي ، وضعت يدها اليسري ببطء على حبات العرق الباردة ثمّ مسحت بها وجهها ورقبتها وصدرها ، ومررتها على ثيابها ، بللت خمارها ، وهي تُتمتمُ بكلمات ، وعيناها تلمعان بدمعة توشك أن تهبط .

كان المأتم قد أوشك على الانتهاء . ملأتْ المرأةُ أكواباً زجاجيةً بشراب الزعفران وراحتْ تقدّمها للنائحات . قالت (المُلاَّية) بِنت حسن :

- «ما أهلك النساء إلا الأصفران : الذهب ، والزعفران»

فتعالت صيحات النسوة «الله . .الله . . الله . . الله يحفظش»

فلمّا عادت المرأة تملأ الأكواب مرّة أخرى ، اقتربت منها امرأة وسألتها عن أحوال شامة القمر ، فاستندت إلى حافة إناء الزعفران ، وهي تأخذ نفساً عميقاً . . تهدّلت عباءتها ، ولم تلتفت . . لم تعدْ تسمع أصوات النساء . . لم تقل كلمةً واحدةً . . . الكوب المعدني غاص في قاع ماء الزعفران . . . اختفى في اللون .

– «يا عباس . . شامة القمر –ابنة عمّك– وشمٌ في الحدقة»

١٠

قَنْدَةٌ فَارسيـة

كلّما أوضحتُكَ لَكَ انقدتَ إليَّ . .

كأنّ قلبي إليكَ مستحيل . تبحثُ عن جهة إليه بعينيك ، منذ أنْ علّمك أبوك أنّ الجهات مشفوعة بالسلام البعيد . مَنْ قال لك : إنّ القلب جهةٌ؟ وإنّ ضوء المصابيح لا يُشبه عرقي حين الرقص؟ لكلّ حبّة عرق ضوء ، لكلّ حبّة عرق لمعان قندة مسّها ريق قبلة الماء . يجتاحُك الخوفُ من موتى تُقوّلهم كلّ يومٍ أحاديث وكلاماً في غير الرغبة . تُسكتهم ، وتُنطق عقيرتهم حين تسوّر الجنة لك . ترى بهم ، ويُهندس مشيئتك ما هندسه الخطاطون لك من شفة إلى شفة إلى شفة إلى شفة . كنت لعبة المجاز ، رهينة الطهارة .

تعالَ نرقص على مجازاتك ، نلعب معها ، نلعب بها ، عليها ونشتهي . كنتُ كلما حدثتكَ عن الرقص خنقتَ ابتسامتك . تعالَ نرقصُ تخرجُ صورتُك منك . تخرج الصورة من الصورة ، وينفكّ

رهنك . يهتزّ جسدك ويقول ما لا يُقال . فكلّ ما كنتَ تقوله بلسانك المنصص ينفيه جسدك المشخَّص ويحرجه . تعال ففي الجسدِ نحنُ . كلّما وهبتك الوقوف إثّاقَلت إلى الأرض . جسدك مثقل بالطهارات . كنتَ مثل شاعر يعدّد للناس شرفاتِه المغلقة ، ونزوات شرقية لا تغادر نيته . يسكبُ خمراً لا يُسكر ، ويرسمُ نهود فتيات لهن أصوات رجال الصف الأوّل من المعركة .

كنتُ أعتسفكَ ، وأنت تُقلّبُ يأسك على رجائكَ ، وانتظارك على عجلتك . لا أنتَ باقٍ لي ، ولا أنت مُبقيني لك .

وقفتُ للرقص فاضطربَ جبينُكَ . كنتَ تشخصُ إليَّ بعينين لا تطرفان . ضربتُ برجلي الأرض فأنبتت رجفاً بهيجاً سرى إلى زوايا عينيَّ . كأنّ عينيك جامدتانن وسيرة البحر لاتأتيك . ضربتُ الأرض برجليَّ معاً فتكاثرت قناديل العرق ، ودعت الحكاياتُ الحكاياتِ ، والهزةُ الهِزةَ ، والرقصة عرق الليل ، والميل لمعان بالعيون . سبحانك أودعت قند الحبّ بخاتون . مددتُ يدي لأدخلك في التجربة ، تطايرت حبات من العرق على وجهك فالتمعت ابتسامة نادرة على شفتيك سفيرتي حكايات الذبح .

تعالَ يا عبّاس نُعطي الجسدَ بهاءه ، ونفتنُ فضةَ العينين بقند الشفتين . نرقصُ ولا نهتم . نكتبُ ولا نَعْتِم . نفتحُ الشهيةَ على سيرتك وسيرة حيّك . تعالَ نرقصُ فالجسدُ الخامل فراش الموت . هيأتُ لك لو ترى : أنّ الجسدَ مائدةُ العِشق ، وأن العِطر في أسفل

العُنق ساعة الرقص نهدُ العرس .

كلّما أخذتُك إلى ساحة الصدرِ رأيتُ فيكَ بهجة مَنْ وُهِبَ القدرة على زراعة الورد على الماء ، فآخذك أكثر فترتدُ سفينةَ خوف لا تتزنُ . لا أنتَ قادر على أن «تلوف» في صدري ، ولا أن ترى تنمّل العرق بين جناحيّ الصغيرين . قُلْ : إنّك لا ترى . قُلْ : إنّ القوارب التي تلوفُ تنسى فتنة الماء الأوّل . تلوفُ القواربُ مفتونةً بالرقص على الماء . رقصٌ لا يُوقفه إلاّ غرقٌ أو فتنةُ عَرق . كلّما رقص (الزقرت) محسن أمام فتاته تطايرتْ من جسده رائحة البحر . عبثاً حاول أن لا يشمّ تلك الرائحة . قُلْ : إنّك في غيرك ، ولستَ فيك ، يأخذكَ إلى رقصٍ لا عرقَ فيه إلا ليلة الوحشة . استجمعتَ وحشتك وقلت :

- «قالوا لي دموعك الجنّة» .

جسدك جنّة يا عبّاس . هيأتُ لك . . أرخيتُ صوتي لك . . خضع لمعان عينَي . . هيأتُ لك . . فتحتُ جنّة الصدر ، فاضطرب حمام حسن السيد . . أعددتُ لك مائدة السيرة ، من كلّ سيرة لبّ العشق المفتون المجنون ، المكتوم المحموم ، الخافت الصامت ، ثمّ رقصتُ لك . . كأّن جسدكَ يهمّ إلى قندتي الفارسية ، فيطفئه غيرُك . لم تكن ذاتك فيك . كأنّك لا ترى القند .

كنتُ وحدي سادنةَ سيرِ الحبّ
صرتُ وحدي سادنةَ القَند .

أهيئُ القندَ للعشّاق في حيّك قندةً قندةً . يمرّون بي فُرادى خلسةً

ولا يتكلمون . أضعُ القندة على السيرة فتنفتح ، فأعرفُ العاشقَين المتوالفَين منهم ممّا بقي من ماء القند على شفا كؤوس الشاي . هل تذكرُ؟ لم يكنْ لقبلتك ماء ، وكنتَ عميدَ الحزن ، فوهبتُكَ قندة الماء .

أقسمتُ عليك – وأنتَ مُنْغلقُ الماء– بماء القندة ومسّ القبلة والنَّفَسِ الساخن على الخد لحظة التقبيل ، أن انهضْ أيها الجبل الأسود أُرِكَ : أنّ الشيءَ إذا تمكّن أشار . وأنت لا تفطنُ إلى إشارات الكون من حولك ، فثمّة مَا يغلقلك ، ويحصنك ، ويحميك ، ويشفع لك ، ويقسو عليك ، ويأخذك إلى فتورٍ سمّرك ، ويمرر رؤاك على رؤاه ، ويمسخك . ثمّة آلةٌ أفرغتْ عينيك من مائهما . . أفرغت جسدك . . أفرغت الكون من قلبك . . وهبتك للنذور ثمّ أفرغتْكَ . ما كنتَ تشكُّ وما كنتُ أكاد أوقنُ .

أنتَ موهبةُ الحزن ، وأنا أدنُو بكَ موهبةً على القَند .

نيةُ الرقص تجاوزت اليأس . تحركتْ قدمَاي بي نحو فضاء الدار . كنتَ ترفع بصرك ولا ترفع رأسك . أدرتُ قدميَّ في خطوات نحو الأمام والخلف بينما يداي تُحاكيان أجنحة حمام حسن السيد . هل كنتُ على وشك الطيران؟ أيّها الجميل : في عالم الحَمام «الأنثى لا ترقص» .

في الهَزّة الأولى كنتُ كمَنْ يرغبُ في مسّ زغب أجنحة الملائكة ، وفي الهزة الثانية سرى خدر في الجانب الأيسر من ظهري حتى خلف أذني ، فلم أقوَ على فتح عينيّ . في الهزة الثالثة كأنّ

جسدي كلّه نهدُ العرس . في الهزة الرابعة كنت تهمّ بي لولا أن رأيت برهان حزنك . في الهزة الخامسة بدأ شعر رأسي الأسود يلتصقُ بجبيني العَرِق ، وأسفل أذني . في الهِزّة السادسة كنتُ أسند أسناني بأسناني ، وشَفتِي على شفتي دَم . فقدتُ العدّ ولم أعد قادرةً على منح جسدي هدنة . كلّ جزء صغير في جسدي يشتهي الضمّ والعطر فيه نَفَسٌ . وأنتَ . . لا أنتَ في اليقظة ولا في الغفلة . رقصٌ للجسد ، لا تراه أنت إلا على الجسد .

تعالَ : اليوم قندٌ وغداً نقد .

هيأتُ لك الشايَ والقند والعسل وعطر الليل . . بدأنا نتسيرك سيرةً سيرةً منذ أن لم يكن لعينيكَ علامة ، ولم يكنْ في ريقك قند . فلما خدرَ الشايُ وخدرتْ سيرتُك ، وثقل العطرُ حتى هبط للجوزتين ، أشرتُ : هَيتَ لك . ما غادرتَ مكانكَ ولا اشتعل القندُ فيك . فلما غمستُ خنصري الأبيض في العسل ، كانتِ الدنيا عينيك ، والعطرُ نفَسَك .

١١

زِينَةُ الجَناح

تَستغني
تَكتفي
ولا تحتاجُ إلى العالم .

تحملُ رايتك السوداء الصغيرة ، تجري بها فرحاً جهة صدى المعركة . لم يترك أحبابُك مكاناً دون صدىً . تختالُ كلّما لمحتَ فرحاً في عيني أبيك ، وكنتَ كلّما دنا موعد للحزن ابتهجت . صار حزنُك الصغير بهجةً تألفها ، ففي المعركة أشباهك ، نالهم من القصل حظٌ . ينامُ أطفال الحيّ وتبقى أنتَ تنتظرُ ساعة حزن الكبار في حيّك . لا يحلو الحزن إلا ساعة اشتداد الظلمة . أليس الحزن ظلمة؟ تمرّ الراياتُ في ظلمة أزقة الحيّ ، فترتجُّ الأرضُ أسفلَ الأقدام العارية ، تُذكِّرُ الناسَ بيوم رفرفتْ فيه راياتُ الماء على ماءٍ لم تنلْ منه غيرَ صورة لا محلّ لها . أليست الصورة صاحبة المحل؟

ساعةَ يرسمُ الأطفال في حيّك لا يصلون الخطّ بالخطّ . علّموك الغنى عن الآخرين ، وأنّ الكون ما خُلقَ إلا لك ، وأنّ الرسم تفرّد ، وأنّ كلّ شيء لديك مكتمل . كان جسدك وحده ينمو ، وحزنك يطّرد . رسموا لك ، وأغلقوكَ عليهم . ليتني أغلقتُكَ عليَّ ومحوتُ روحي فيك . ليتني أغلقت قمرك عليَّ ، لأريتُكَ أنّ النموَ محوٌ ، وأنّ الرسَّام اليقظ لا يصل الخطّ بالخطّ .

كنتَ تعرفُ كلَّ شيء ، ولا تعرفُ أيّ شيء! تقفُ مفتوح العينين والقلب وفي سواد عينيك مرايا صور معلقة على جدران مأتم أحبابك الصغار ، ولم يكنْ قلبُكَ مُنشغلاً بغير الصورة . لم تكنْ ترى هذه الصور إلا زمن الواقعة . تغيبُ عن الجدران فقط . تتعدد الواقعة في الصور مثلما يتعدد سردها . صور كلّها تنتهي بالموت ، وليس ثمّة تأويل للحياة . تبدأ رحلة عينيك إلى كلّ صورة بالخيول وكأنّك تسمعها . لم تكن تراها خيول حرب ، وهي التي لم تهدأ سنابكها من فزع مستطيل ، ولم تجفّ نواصيها من عرق الجهد . خيلٌ فتحتِ الواقعةُ شهوةَ الكلام سحراً في عينيها «الظليمة الظليمة» . . كنتَ طفلاً بارعاً تحدّث الخيول متى شئت ، وفي كلّ عام تأخذ خيولك شكلها الجديد في الصور ذاتها . لكلّ عام خيل ، ولكل عام واقعة .

_ «كنتُ أضع أصبعي في فم الخيل فلا تعضني» تضحك قليلاً . .

– «ما الذي كنت تقوله لتلك الخيل»؟

- «أنا عبّاس» تبتسم .

تنتظرُ يومك الثاني مثل أيّ طفل لا يعرفُ الانتظار . تجري نحو صورك والقصص التي تنضح منها . كلّما اقتربت ازداد صوت الحاج عبد الهادي بن شرار ، يتخلل الرايات الحمراء والخضراء : «اعلموا أيها الأخوان : إنّ نفثات الأحزان إذا صدرت عن زفير نيران الأشجان فرّجت بعض الكروب عن الواله المكروب ، والدموع الهِتان إذا أسبلت عن مقرَّحات الأجفان ، فليس ذلك المد المصبوب ما يجده المتيم المتعوب ، فليلبس كل واحد منكم شعار أحزانه ، وليتجلبب بجلباب كآبته وأشجانه . .»

تتسمّر أمام الصور كأنّك ترى الخيول للتوّ . مرّةٌ عاشرةٌ تبدأ تشاهدُ الصور مبتدئاً بالخيول أيضاً . أليست خيول المعركة تتشابه؟ كلّها عادياتُ الموت! فلماذا خيولك المُثخنة بالجِراح ، المزينة بالأنصال جميلة ، وخيول أعدائك القوية قبيحة؟! لم تقو عيناك على مغادرة أشباح الخيول ، وكأنّ الصور كلّها خيول .

عيناكَ في صورة أكثر الخيول خضوعاً وقوةً وجسارةً ومراوغةً وإقبالاً وكراً وفراً ، وحمحمةً ، وفجيعةً ، وذهولاً ، وجمالاً ، مأمونَ العِثار . قِيلَ لك إنّ له اسم لا تُشبهه الخيلُ فيه ، وإنّه يعي الكلام ، وإنّ اسمه «ذو الجناح» .

كأنّ صوت الحاج عبد الهادي بن شرار للتو يبدأ سرد الواقعة . كنت تصغي للصورة ، ولا تصغي إليه : «لما قتل الحسين بن علي

جعل جواده يصهل ويحمحم ويتخطى القتلى في المعركة واحداً بعد واحدٍ ، فنظر إليه عمر بن سعد فصاح بالرجال خذوه وآتوني به ، وكان من جياد خيل رسول الله . . فتراكضت الفرسان إليه فجعل يرفسُ برجليه ويُمانع عن نفسه ويكدمُ بفمه ، حتى قتلَ جماعةً من الناس ونكَّسَ فرساناً عن خيولهم ولم يقدروا عليه . فصاح ابن سعد ويلكم تباعدوا عنه ودعوه لننظرَ ما يصنع ، فتباعدوا عنه ، فلمّا أَمِنَ الطلبَ جعل يتخطَّى القتلى ويطلبُ الحسين بن علي حتى وصل إليه ، جعل يشمُّ رائحته ويقبله بفمه ويمرّغ ناصيته عليه وهو مع ذلك يصهلُ ويبكي بكاء الثكلى حتى أعجبَ كلَّ مَنْ حضر ، ثمّ انفلتَ يطلبُ خيمة النساء وقد ملأ البيداء صهيلاً . . .»

لا تغادر إلى بيتك القريب حتى يبدأ خوف سؤال أمّك عليك . تعود مُتعباً كأنّك نزلتَ من صهوات كلّ تلك الخيول . تلقي السلامَ بصوتك الناعم على البصير الحاج إبراهيم البزاز مُتَّكئاً على (طاقات) القماش في دكانه ، فينتبه من غفوته ولا يعرفك ولا يردّ عليك السلام . لكنّه يُتمتم بكلمات يُرضي بها خاطره .

- «في هذه الأيام كنتُ أنسى البحر» قلتها سريعاً .

- «ولست وحدك مَنْ ينساه»

تمرّ على فتية حيّك تحلَّقوا حول قفص فيه ست من الحمام الأبيض . الأبيض وليس غير الأبيض . كلّ واحد قد عرف دوره لصباح اليوم التالي .

_ «لا تخافوا . . إذا هربتْ حمامةٌ ستعود إليّ . . لكن حاولوا أنْ لا تهرب فكلُ فتحة – حتى لو كانت صغيرة- عند الحمام باب . . الحمام لا تصيبه الحيرة إذا رأى حريته . . لكنّها حتماً ستعود» قال ذلك خبير الحمام في الحيّ (حسن السيد ،) ، ثمّ غادر والفتية يؤكدون له حرصهم على الحمامات الست .

غادر حسن السيد فاختلف الفتيةُ حول موعد تلوين الحمامات الست باللون الأحمر فقط :

- «ننتظر الليل ، فهي لا ترى في الظلام» قال صغير الفتية .

– «نحن أيضا لا نرى في الظلام . . ههـهـه» قال فتى آخر فضحكوا .

– «نصبغها صباح غد؟» قال الثالث .

– «لن يجفّ الصبغ . . ستكون رطبةً وهي على ظهر الخيل . . نصبغُ ريشها اليوم بعد الغداء أحسن» قال كبيرهم فبدت علامات الموافقة في وجوه الفتية ، إلا واحداً منهم طلب أخذ حمامته ، فرفض الكبير :

- «حسن السيد قال انتبهوا لا تطير الحمامات . . للتو» فلم يجد الفتى أيّ مساندة من أحد الفتية .

حمل اثنان منهم القفص المصنوع من جريد النخيل ، وسار الفتية خلفهما . كنتَ تسير على هامشهم نحو زريبة أم عبد النبي ، أو زريبة بيت الحليبة ، حيث المكان المؤقت ، والمتفق عليه لصبغ الحمامات . لم تمانع أم عبد النبي ، وباركت هذه الخطوة ، وتمنت التوفيق للفتية . نزلتْ

منها دمعة لم يلحظها إلا فتىً واحد ، وأنتَ .

– «في ذلك اليوم تمنيتُ أن أكبر بسرعة لتكون لي حمامة بيضاء ، أصبغ ريشها بالأحمر الدموي ، وأثبّتها على ظهر الجناح» أخذت نفساً عميقاً .

عاد بعض الفتية سريعاً!! بعضها لم يأكلْ!! دخلوا تباعاً إلى الزريبة ، وتحلقوا حول قفص الحمام من جديد . اقترح كبيرهم الصعود إلى سطح الزريبة :

- «بالشمس يجفّ الريش أسرع» قال كبير الفتية .

حذرت أم عبد النبي الفتية أن انتبهوا جيداً فسطح الزريبة خَرِبٌ ، وقد لا يحتمل إلا الخفيف منكم ، ولم يكن بينكم إلاّ الأسمر ، خفيف الوزن والروح .

على سطح الزريبة أعدّ أحد الفتية الصبغة بيديه العاريتين في سطل قديم واسع ، كانت أم عبد النبي تحلب بقراتها فيه . ماء وطحين أحمر . صار السطل كلّه أحمر ، وكذلك يد الفتى . فلما صار الصبغ جاهزاً ، أخرجَ أحد الفتية حمامةً واحدةً استعداداً لصبغ ريشها .

_ «انتبهوا لا تطير» قال كبير الفتية .

تحلّق الفتيةُ حول القفص ، وامتدتِ الأيدي تمسك الحمامة فلم يعد يُرى منها إلا الرأس!! كانت فَزِعةً ، لكن الحمامات في القفص أكثر فزعاً . صبّ أحدهم من السائل الأحمر على الحمامة فاصطبغت الأيدي معها . صارت الحمامة كلّها حمراء حتى قدميها المسرولتين

بالريش . كلما انتهوا من حمامة وأعادوها إلى القفص ، نفشتْ ريشها وانتفضتْ مرّات . فلّما انتهوا منها جميعاً جلسوا ينتظرون ريشها يجفّ ، بينما كانت قطتان تراقبان الحدث ، لعلّ الفتية يتركون الحمامات وحدها!!

وفي الصباح كان كلّ فتىً يسير إلى جنب حمامته المثبّتة بإحكام على ظهور ثلاث من الخيل ، مزينة ٍ برايات الحرب ، وسَرج المنون ، كلّ واحدة ٍ منها تُسمى «الجَناح» .

مرّت الخيل في شوارع وأزقة الحيّ ، يتقدّمها رجالٌ مُهيبون يُنشدون «ذا الجناح أقبل من الميدان خالي وا ويلاه» . وكلّما اقتربتِ الخيلُ من تجمعات النساء رمينها بأغصان المشموم المبلل بماء الورد . تحمل إحداهن طفلها الرضيع ، وقد ألبسته ثوباً أخضرَ صوبَ الجناح ، يتسلَّمُهُ رجلٌ برفق ، لا ينظر في وجوه النساء . يضعه على ظهر الجناح فيميل بميله . يقترب منه رجل آخر ليمرر على رقبته عصاً رقيقةً من القصب في سرعة ورفق بدلاً من السيف وكأنّه يذبحه . يدعو له بعمر مديد ، وولاء ليوم الواقعة ورجال الواقعة . تشكره الأم بعد أن تدفع له ما تيسّر لها من نقود . تضمّ رضيعها وتُخْفِي عبرتَها لحين وصولها إلى سواد النساء .

– «تقول أمّي إنّها ذبحتني على الجناح في ثلاثة مواسم متتالية ، وأنّ الله استجاب منها نذرها ، ونظر في خاطرها»

– «وما نذرها كان؟» سألتُك بلهفة الانتظار .

– «لم أسألها قطّ ، لكنّي سمعتها مرّةً تقول لإحدى النساء إنّها

كانت تفقدُ رضيعها في ليلة اليوم السابع من الولادة . وبعد أنْ فقدت الرضيع الثالث تأكّد لها أن لن يبقى لها طفل . ويوم مولدي أحضرت لها امرأةٌ خروفاً ، ربطته بإحكام في إحدى نخيل دالية البيت ، فلمّا حلّ ظلام اليوم السابع ، ونامت القرية كلّها ، حلّ فزعٌ في الخروف لم يهدأ إلا بصيحة كان فيها منيَّته . قالت جدتي إنّ الصرخة لم تكن من الخروف» . . قلتَ ذلك وتأثرتَ .

لكلّ رضيع مذبوح في حيّك سيرةُ قمر . . يسير قمرُه به منزلةً منزلةً ، فإذا استوى بدراً ، نالَ شرفَ قمر المعركة . . لكلّ رضيع في حيّك سيرةُ نذرٍ أو عهدٍ . . ورجالُ حيّك يتركون رائحةَ أشكالهم في صدور النساء ويغادرون .

ها أنتَ يا قمرَ الحيّ ، كلّما اقتربتُ من صورتِك لا تبدو لي . . أُغَيِّرُ موضعي مليمتراً واحداً فتتغيّر الرؤيةُ في العالم كلّه ، إلا في عالملك .

كلّما اقتربتُ من منازل بدركَ ازددتَ عَتمةً . . كأنّ أقمارَ حيّك لا تعرفُ مدار الشمس ، ولم تستعرْ منها يوماً خصلةَ ضَوء . كلّ المكان لصورة خيل أصيلة ، تمنت لو «تلوفُ» كما «لافَ» قاربُك ، وتهجرُ صوت حروبك الوهم ، نحو جهة غاب فيها قاربك . كلّ صورةٍ في حيّك تطلبُ الضوء مرّة واحدةً ، وتستغني به . هل كلّ ما يبدو لك الآن : أن ليس في صور الحيّ ما يُمسّ؟ وأنّك تستغني ، ولا تحتاج إلى العالم؟

١٢

الذينَ يَحملُونَ القَند

كـان عليّ أن أقطعَ كلّ هذه المسـافـة الضـوئيـة الشـاسـعـة بيني وبينك ، لا لشيء سوى أنْ أحملَ القند إليك . ها أنتَ أيّها المُسْتغني عن العـالم تُنكرني . أحـببتُكَ وأنتَ لا ترى! من أينَ تنفذُ البـهجـةُ إليكَ ، وأنتَ لا ترى إشاراتِ السكّر في عينيّ ، ولا ترى أنّني حملتُ القندَ مفتوناً إليك؟

الحبُّ امرأةٌ من قَند . . .

الحبّ . .

الحبُّ امرأةٌ من قند وماء أغلقتْ فراشـةٌ عليهـا جناحيـها ، كلّما خدر الماء سكرت . .

يا عبـاس تأتي تُبشّرُ بأجنّة الاسـتغناء والانتظار ، كـأنّك مَركـزُ الكون ، مـا خُلِقَ إلا لك وحدك ، وأنت فاضلُ الطينةِ المقدّسـة . أنتَ الورق الملفوف بالثمر . من أيّة طينةٍ أنتَ ، والأخضر في أوراقك موتٌ؟

كأنّك «موتٌ أخضر»!

أيّة سيرة لوردة كانت .!

إنّ جيباً صغيراً جاور نهدها لابدّ أن يكون مليئاً بالخيال والقند . فتاةٌ كلّ فؤادٍ عليها قند . حارسةُ خزانة السكّر في الشفتين . عَشِقتْ الحمامَ كما لم يعشقْهُ أحدٌ من قبل . كانت وردة خاتونية الهوى ، عشقاً قمرياً ، لا يُشبهها إلاّ أكثر المخلوقات وجعاً في هذا الحيّ . . الفتياتُ العاشقات سرّاً !!

ويوم عشقت كَتَبَتْ . .

مثل كلّ عاشقٍ يرى أنّ الكتابةَ لا تَستعصي عليه كانت وردة . شاعرةٌ في النثر . لم تعرفْ أنّ العشق قد تمكّن منها حتى كرهها أهلُ حيّك . هذه علامة العشق في حيّك ، أنْ ترغم الجميع على كرهك ابتداءً من النساء الصغيرات! الحبّ في حيّك مكمنُ الشرّ كلّه . أن تحمل إليهم القند ، فيحملون عليك . ليس ثمّة لذة دون شرّ! ، ولا حبّاً دون قند . إذا لم يجرِ ذلك فعشقك شُبهة بصرية ، تُشبه صورة وجه كلّما زاد الوهم فيه زاد خسفاً . العشق شرٌّ .

«حبيبي
أشتاق إليك . . وحده الشارع يهتمّ برغبتي . .
و نافذتي لا تحيى إلا بمرورك
نافذة لا تنفذ إلى صورتك شُبهة
وأنت تعرف أيضا ما الذي في خاطري . . «أشوفك لو من بعيد»

فلا تضن عليّ بمرورك جوار دكان الحيّ . . «ولو من بعيد»
طوتْ ورقة الرِسالة ، وأخفتها في عَرَقِ باطن يد أختها الصغيرة مريم .

لا أحد يعرف من صديقات مريم الصغيرات إلى أين تذهب ، لكنهنّ يعرفن جيداً أنها لا تتأخر . تشير مريم بيدها الصغيرة إليهن : سأعود بعد لحظات ، أوقفن اللعبة قليلا . يستجبن لها بقليل من الاعتراض بدا على وجه أصغرهن : «يعني لازم كل يوم وكل حين وكل شوي؟! باجر ما بِنحارسها مريمو»

بين وردة و عقيل كانت مريم تُشبه ملاكاً يحمل الضوء من السماء إلى الأرض مرّات في اليوم الواحد . تحمل خاطر أختها قنداً يناله العرقُ كلّما بالغتْ في القبض عليه . لا تعرف مريم من الحكاية شيئاً ، ولا تدري لماذا يتعرّق القند؟ ولم تسأل ، ولم تسأم . هل كانت الملائكة تعرف أنّها تحمل الضوء؟

كانت مريم رسولة القند ، وَحْيُها كلماتٌ من قند . . أليس الوحي كلمات؟!

«يا بعد عمري
كنت مرهقاً قليلا لكنني حتماً سأفعل اليوم
وقد أطيل الجلوس عند دكان الحاج حميد
أحبك كثيراً . . أحبّ الطفلة في عينيك»

لم تستطعْ صديقةُ مريم الصغيرة تكرار تعطيل اللعب . تتأفف

وتحتج «أني يتراوى ليِّ إن مريمو تتعمد تخرّب لعبتنا»

بدأتْ طفلة أخرى تحتج على غياب مريم «يعني لو بعد مرّة مرتين ما عليه . مللتنا مريمو . ما نعرف نلعب جدي . أحس إنها مغرورة»

«لم أستطع الوقوف كثيراً عند دكان الحاج حميد
خشية أن يعرف الناس ما بيننا . . أخاف عليك
أخاف أن يعرف الجميع فتصبحين خاتون أخرى في الحي!
لو أراك من جديد . . لو أستطيع أن أطيل النظر في عينيك»

اشتكت مريم إلى أختها تأفف صديقاتها ، فلم تكترث : «خيّوه . . باچر بينسون ما عليش منهم» . عيونها على مريم ، وعلى زقاق ضيّق تضيئه مشيتها ، ويدها الصغيرة دنيا وردة الكبيرة «سلّمي لي الشوق يخضر بالسلام وبالمحبة . . سلّمي لي الشوق طير وياك رايح عرف دربه» . لا تتحرك عن نافذتها حتى تختفي مريم .

«عمري
لِمَ تذكرني بخاتون وهي وجعنا؟
وهي قندتنا؟
أنا لن أكون مثلها لشدّة وضوحها حتى مع أبيها
لذا لا أرغب في أن يعرف أحد ما بيننا
سأنتظرك عند نافذتي وحدها تفتح عالمي عليك
وعلى سيرة الحيّ كلّه
سأنتظرك فلا تخذلني»

عرفتْ مريم أنّ واحدة من صديقاتها انتقلتْ إلى مجموعة أخرى من فتيات الحيّ، وأنّها صارت تحكي لهن عن غيابها المتعمد خلال اللعب: «ما حد يعرف وين تروح أصلا . . أف . . كانت إختها وردة تناديها وبعد شوي تروح واتخرب علينا (السَّكُونه) . . مللتنا عدل . . كل ما سألناها وين بتروحين؟ ما تتكلم مثل الصمخة»

هذه المرّة الأولى التي يبدو على وجه مريم الضيق . قبّلتها وردة مراراً لتكونَ القبلاتُ عوناً لها على حمل القند . كأنّها هدأت!

«رأيتك اليوم . . رأيت هزّة كتفيك يا سبحان الله
كأنّي أرى مشيتك لأوّل مرّة
كنت تمرّ سريعاً وتترك طيفك يلعب ببصري وقلبي
كأنّ حيوية الأشياء لا تكون إلا بالحبّ
كأنّ الصورة لا تموت، وأنّ كلّ شيء لا يمحوه شيء
أحبك . . أحبك . .

مرّ عامان ومريم تحمل القند بين عقيل ووردة . . صارت تبتسم كلّما سلّمها أحدهما رسالة إلى الآخر، ولم تك من قبل كذلك! سألتها وردة مرّة عن ذلك فهزّتْ رأسها: «ولا شي!»

«هذه المرّة الرابعة تعود فيها مريم دون رسالة منك
ولا حتى ورقة صغيرة فيها كلمة كبيرة كما كنت تفعل
من قبل! ما الأمر؟ حتى أنك لم تعد تأتي إلى دكان الحاج حميد!

هل أنتَ بخير؟»

لم تعدْ مريم تتأخر كثيراً على صديقاتها . .

«خبرتني مريم أنك بخير وأنك تستلم منها كل رسائلي ولا تطلب منها الانتظار خارجا كما كنت تفعل من قبل! لا أعرف ما بك ، ولا أذكر أنّي أخطأت في حقك! أليس كذلك؟ ما الذي يشغل بالك؟ حتى أنك لا تريحيني وأعرف ما بك!

أحبك كثيراَ . . سأنتظر رسائلك حتى لو تأخّرت»

كانت وردة تترقبُ طلّة مريم في رأس زقاق بيتهم . بدتْ مريمُ تحملُ شيئاً في يدها اليمنى فَجُنّتْ وردة ، وأصابها ما يصيب الزعفران حين تُدير النسوةُ ماءه فينفث لونه روحاً ينازعها الماء ، بينما خيوطه في حركة تصادم وتداخل والتفاف . كانت مريم لا تغلق يدها الصغيرة ما لم تكن ممتلئةً بالضوء ، ممتلئةً بالقند . وعلى الرغم من كثرة المارّة في الزقاق لم تكن وردة ترى غيرَ مريم! كأنّها بطيئةٌ في السَير أم أنّها تفتعلُ ذلك! كانت الملائكةُ تحمل الضوء من السماء إلى الأرض في سرعة لا يقدّرها أحد . ثمّة أرواح لا يحييها إلا القند ، ولا تُحْيي إلا بسكن الضوء فيها . وقد تستوقفُ مريمَ صديقةٌ لها في الزقاقَ فيدخل وردة من القلق ما يحجب السكينة فيها ، وتتحسَّسُ ألماً في أسفل الصدر . حدث ذلك مَرتين!!

«بسمه تعالى

ما نفعله يغضب الله ولا يرضيه
لا ترسلي أيّة رسالة بعد اليوم
أحرقت كل أشرطة الغناء واحداً واحداً
لا عبد الكريم ولا عبد الحليم ولا فيروز
عليك أن تفعلي ما فعلته
أحرقت كل أعداد مجلة النهضة الفاسدة
ولن أذهب إلى نادي الحي الثقافي وسوف أحاربه
هذا ناد للفساد لا للصلاح
صرت أدرس فقه في كتاب «تبصرة المتعلمين»
واللغة عربية في «الآجرومية» عند السيد هاشم
مثلما قلت لك : لا ترسلي مريم لي مرّة أخرى
الحبّ لله وحده»

يا عباس . . كانت وردة تحمل قنداً ، ويحمل عقيل بيارق الصحوة بيرقاً بيرقاً على كلّ واحد منها قمراً في عين فقد . يحيطه الحديد وحماس النبوة وشيء من مكان بعيد يتهيأ لمن يهبه اسماً ، ويهبه كلّ وجوه شباب الحيّ ونسائه : «بالروح والدم نفديك يا إمام» . لكل ثورة يا عباس شهوتها في امتلاك السرير كله! كل السرير حتى شرشفه ورائحة الوسادة ، وما بقي عليه من قشرة الرأس وسيرة المحبّة . كان السيد فادي رسول الثورة إلى بلادك ، يهيئ القاعدة منذ ١٩٧٥م ولم ينقطع وجوده منذ ذلك اليوم ، وسيكون عقيل من أهمّ رجاله ولن

يظهر معه ، ولن يلتقي به إلا سرّاً مثل رجال حي شارع الحبّ (عشق راه) . جارات وردة الأربع كنّ أجمل الفتيات جسداً وأول المبادرات إلى لبس الحجاب وجواريب سوداء . . سوداء فقط . غطّت واحدة منهن وجهها قيل إن الرجال تفتتن به عليه!

يغطي الحجاب شعر الرأس والرقبة وقليلا من الذقن . لم يَعد الذقن من الوجه! انتشر (البالطو) بين النساء واعتمد الذي لا يصف ولا يشف ولا يغري لونه . استُبْدِلَت القفازات السوداء أو البيضاء بالأيدي ، وتحسباً لانزلاق كُم البالطو وُضِعَتْ أكمام سوداء منفصلة غير متحركة ، تحول دون كشف معصم اليد أمام أعين الرجال . صارت النساء اللواتي يكشفن قليلاً من مقدمة شعرهن نادرات . وقال الخطباء : المرأة لا تعمل إلا معلمة ، أو ممرضة أو طبيبة حفاظاً على كرامتها وحجابها وعفافها ، واحتجوا لذلك بنساء صدر الإسلام . كانت الكتيبات التي عن المرأة تنتشر أكثر من الكتب! كتيبات وضعها رجال عن حجاب المرأة وسترها ، وأحكام الدماء الثلاثة : الحيض والاستحاضة والنفاس . بدأت المساجد تخصص أماكن للنساء الرساليات ، والمرأة الزينبية .

هجرت جارات وردة أَسِرَّتَهُن الوفيرة وافترشن الأرض بما خَشُنَ من المفَارش مواساةً ومحاكاةً للمَساجين الرساليين ، وتربيةً للجسد على ألم السجن ، واستعداداً له! ويوم خُطبت إحداهن اشترطت في خطيبها الاستقامة والصلاة والصيام ، وسألته عن الفقيه الذي يقلّده

ويتبعه . فلمّا وافقت طلبت منه تعليمها سورة قصيرة من القرآن مهراً لها ، وسجادة صلاة . وبدلاً من أغاني العرس تغني النساء أناشيد ثورية وحماسية جديدة .

توقّف الرقص في الأعراس ، لم يعدْ ذهبُ العرس يلمع ، ومرايا فرشة العروس رُكِنَتْ في مخازن المآتم . لم تعد الفرق الموسيقية الشعبية ، وفِرق الطرب تأتي لإحياء الأعراس ، ومَنْ يستقدمها يُعاب ، ويُنعت عرسه باللهو . كان قوام هذه الفِرق الطبول والطارات ، ومغنٍ واحد حسن الصوت ومجموعة للتصفيق بالأيدي والغناء الجماعي ، ومساعدة المغني في الردّ على شكل جوقة . يقف أهل الحيّ من الرجال فقط مشكلين حلقة يبتسمون ويستمعون لعزف وغناء الفرقة . نادراً ما تجد مَنْ يردد الغناء من أهل الحي مع الفرقة . ثمّة خجل يمنع من ذلك . لكن ذلك لا يمنع شاباً متحمساً ببنطاله وقميصه الضيّقين ، وشعره الطويل ، وعارض لحيته الممتد حتى أسفل الفك من أن يقفز وسط فضاء الفرقة ويرقص ، فيزيد حماس المغني ويعلو صوت الطبول . وربّما شاركه راقص أو اثنان من الفرقة كلّما رقصوا تَفَصَّدَتْ جِباهُهم عرقاً والتصقتْ ثيابُهم بجلودهم وتموّجت .

يخرج العريسُ باتجاه المسجد ، يصلي ركعتين شكراً لله فتتبعه الفرقة خلف زفة العرس من رجال وشباب الحيّ بالصلوات على محمد وأهل بيته واحداً واحداً ومديح للصالحين من رجالات الحيّ . فإذا ذكر قائد الزفة (أحمد أبو ربيعة) اسم الصالح منهم قالت الزفة

كلّها «بيّض الله وجهه» ، وإذا ذكر اسم رجل مسيئ أو مفسد في الحيّ قالت الزفة «سوّد الله وجهه» ثمّ يضحكون! وربّما تجمَّع شبّانٌ مراهقون أو مِّمَّنْ عُرفوا باسم (اللوفرية)! خلف العريس مباشرة ، بعد أن تواعدوا وتراهنوا على نقر مؤخرة العريس!! قد يضحك إذا كانوا من أصدقائه! وعند باب بيت العروس يهنئونه واحداً واحداً «مبروك» ، وصيحات متفرقة داعيةً العريس أن يبرهن قدرته وقوته مع عروسه ، وأن يبيّض وجه قومه والداعين إليه!!وعند باب بيت العروس يعلو صوت الفتيات المغنيات بشكل جماعي متنافس ، (بالطيران) الصغيرة وعلب الصفيح الكبيرة . يعلو صوتهن كلّما وجدن إشارة تدل على اقتراب دخول العريس ؛ لتبدأ حفلة أخرى للعريس إلى جنب عروسه المغطاة بأزهى الأقمشة والحلي الذهبية .

لم يعد ذلك يحدث ، وأحمد أبو ربيعة رحل إلى جوار الله . . استبدلت الأناشيد الإسلامية الجديدة بالغناء ، وفرق الطرب لم تعد تأتي . إنّه اللهو . باتَ لكلّ شيءٍ غطاء حتى العيون ، وأن يُوضع المرء على الصِرَاط . لم يعد في الشخص الواحد شخوص . كلّ شخص مرغم على أن يكون مثل اسمه ، لا يخرج عليه ، ولا يتقلّب في حروفه ، وألوانِه .

«لماذا يا عقيل؟
كنت لا تشبه أحداً
لماذا . . لماذا يظل المحبّ لا يشبه أحداً

يا الذي لا تُشبه أحداً
كأنّك تضيع . . وكأنّي لن أراك!
أحبك عقيل فلا تُتعبني أكثر . .رسالتك كلّها جمر»

كان لجدران البيوت لونٌ واحد ، لون الحجر وحده . فجأةً تلونت بالأسود والأخضر والأحمر . كتابات تملأ الجدران كلّ يوم . فقدت لونها المريح للعين . صارت الجدران صحيفة يكتبها أشباح الليل : «لبيك يا إمام» و «الإمام عالي عالي صدام تحت انعالي» و «ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتا ، بل أحياء عند ربهم يرزقون» ، و «الحجاب شرف الأمة» ، و «الموت للخونة والجواسيس» . عُلّقت صور شهداء الثورة على الجدران ، وتناقلت النساء أسماء الجواسيس من الرجال والنساء . صار الناس يحذرونهم ويقاطعون بعضهم ، وسماهم البعض «المفسدون في الأرض» وأطلق عليهم آخرون اسم «العملاء» ، وفصّل أحد الشباب : «هم مخبرين يا جماعة ، والمخبر غير الجاسوس» وقد يستيقظ المتهم وقد ملأت الكتابات جدران بيته «الموت للعملاء» .

امتلأت حماماتُ الطلاب بالكتابات وأسماء المخبرين من المعلمين ، وآباء التلاميذ في المدرسة ، وأسماء تلاميذ منحرفين أو على غير الاستقامة! تمّ تحديد أسماء مَنْ يجب على الجميع مقاطعتهم والذي لايقاطع شريك للجاسوس والمنحرف في عمله .

تغيّر شكلُ دفاتر التلاميذ : صور صغيرة لقادة الثورة والشهداء

على الجلادة الأمامية للدفاتر محمية بجلاد السيلفون الشفاف الجميل . . أبيات شعر ثورية وأخرى حسينية كربلائية . . يفعل التلاميذ ذلك اعتماداً على خبرتهم في اتجاهات المدرسين الدينية والسياسية ، فكثيرا ما طالب مدرسون إزالة هذه الصورة لمن يرغب في اعتماد درجة الدفتر الشهرية! وتمنى التلاميذ لو يدرسون فقه مذهبهم في المدرسة .

- «كنت أحب الأستاذ السيد محمد الوداعي مدرس مادة التربية الدينية كثيراً ، لأنّه المدرس الوحيد الذي كان يشرح أحكام الطهارة و غسل الجنابة على المذهبين . يُخرِجُ تلميذاً ويطلب منه شرح الغسل مع قول النية صحيحة . . عندما مرض الأستاذ المصري فؤاد صابر وغاب عدّة أيام كلّفت إدارة المدرسة الأستاذ أحمد حسن بالحضور مكانه . فلمّا جاء وكتب على السبورة (السيدة فاطمة الزهراء أمّ أبيها عليها السلام) عمّ الهدوء في الصف وتبادلنا النظرات والدهشة : فاطمة الزهراء في المدرسة؟! لم يحدث ذلك قطّ! بدأ الحديث عن سيرة السيدة فاطمة الزهراء ونحن منصتين له حتى النخاع! كان رائعاً مذهلاً . كأن زمن الحصة ثوانٍ! وفي طريق العودة إلى البيت عبر نخيل القرية تحدثنا عن قوة الأستاذ أحمد حسن ، وذكائه وتمنينا جميعا لو أنّ الأستاذ فؤاد صابر لا يعود!» قال عباس ذلك وكأنّه للتو حدث!

وقبل أن يتغيّر شكل الدفاتر كان زيّ الكثير من التلاميّذ قد بدا عليه بعض التغيرات . صار القميص مسبلاً خارج السراويل(البنطال)

بدلاً من داخله ، والأكمام طويلة بدلاً من القصيرة خوفاً من فتنة قد تصيب فتاة من عري الساعدين ، مع إحكام زر العنق . ومن يلتقي بك لأوّل مرّة كأنّه يعرفك من دهر . يصافحك باليدين ، ويلقي عليك صيغة السلام كاملة ، ولا يسحب يديه حتى يستشعر أنك تريد ذلك فيسحبهما في بطء شديد مؤكداً على الترابط الأخوي المفاجئ .

وتمنّى تلاميذ الصف الأوّل الإعدادي أن ينبت شعر لحاهم بسرعة مثل تلاميذ الصف الثالث الإعدادي ، وشاع بينهم أنَّ مَنْ يحلق شعر لحيته وشاربه بشفرة الحلاقة يُعَجِّل على ظهوره! فعلها كثيرون مثلما فعلتها أنت ياعباس .

– «طبقوا في مدرستنا نظام تحيّة العلم في طابور كل صباح . . العلم يُرفع ومكبرات الصوت تضجّ بموسيقى السلام الوطني . . كان الأستاذ ضيف مدرس الرياضة يُنبّه التلاميذ قبل وبعد تحية العلم على ضرورة الاصطفاف واحترام تحيّة العلم ومنع الكلام ، أو أيّ حركة في الجسد ، لكنَّ ضبطَ ذلك كان صعباً جداً . . بعد تحية العلم في طابور يوم أحد غضب الأستاذ ضيف غضباً شديداً ووصف تصرف بعض التلاميذ بقلة الأدب وعدم الانضباط ، ثمّ نادى على الطالب حسن سلمان بالخروج فوراً من الطابور لكن حسن الذي تأخّر في دراسته ثلاث سنوات ، وصار مراقب الفصل ويقود مجموعة من التلاميذ في المدرسة لم يستجب لطلب الخروج مرتين . حينها ترك الأستاذ ضيف الميكروفون واختفى بين صفوف التلاميذ ثمّ خرج يسحب حسن

سلمان من قميصه . علت احتجاجاتٌ يسيرة وبعضُ الصفير . بعد إيقاف حسن ثلاثة أيام عند باب المدير صار محلّ احترام أكبر بين التلاميذ وزاد محبوه واعتُبِرَ موقفه شجاعة كبيرة . . في هذا العام احتفل بالمولد النبوي في فصل حسن لأوّل مرّة ووزّعت بعض الحلويات . . وفي هذا العام زادت الاحتجاجات على دروس الموسيقى . رفض بعض أولياء الأمور تعليم أولادهم الموسيقى ، ونجح تلاميذٌ في تكسير بعض آلاتها . وجد أستاذ الموسيقى حمدي رؤوف نفسه في حرجٍ كبيرٍ ، وأنّ جدّية الاستمرار في تعليم المادة سيضعه في مشاكل مستمرّة . يدخل الأستاذ أحمد فيتعلل بعض التلاميذ ولا يقفون احتراماً له . يصرخ «قيام» فيقف الذين تعللوا بثقل ، مستندين على طاولاتهم الخشبية ، ولا يبقى إلا عبد الغني الذي يصرّ على موقفه الصُلب مع مدرسي الموسيقى! ضربه الأستاذ أحمد بمقدمة حذائه الضخم في رجله فلم يره أحد بعدها يحضر حصص الموسيقى ، وسُجِّل الموقف في شجاعته . صارت حصص الموسيقى فرصةً لَمَنْ يودّ إنهاء واجباته المدرسية ، أو المذاكرة لامتحان شفويّ قريب . . كانت أوقاتاً جميلةً فعلاً» قال عباس .

«مشتاقة لوجهك يا عقيل
لم تعد ترفع عينيك جهة نافذتي
مثلما كنت تفعل! لا أحد يمشي وعينيه في الأرض
هل تتغير مشية الإنسان فجأةً؟

والحب يصبح بغضا في يومين؟
والأعوج مستقيما في يومين؟!
صارت الطفلة مريم تخافك!
صرتَ تتعمد تعذيبي ولا تهتم
يتعبني أن تمرّ ولا ترفع رأسك جهتي
أين صارت خطواتك التي كان يا سبحان الله
أين صارت نافذتي؟
لا أستطيع أن أراك تضيع . . أن أراك على غير ما كانت عليه
صرت أذكر خاتون كل يوم!!
مثل ماء الزعفران يتوه لونه عن خيوطه
خاطري . . أن أتوه في أيّ نجمة لأراك
آه . . ولو أشوفك من بعيد»

١٣

جنِيّةُ الزعَفران

لو كان كلّكَ لي لوهبتُكَ المَرّةَ الأولى في كلِّ مرّة .

لو كانَ بعضُك لِلَيلي لأريتك كلّما فاض بي حملته شفتاي عتاباً .

لو كنتَ لي لجعلتُ حيّك حيّ النوافذ ، تتقمّر تحتها كُلّ قندة تحمل هوى وحنيناً لا تعرفُ لَمنْ! هل يُحرجك أنّك من حيّ يقول فيه الرجال للجمال : أستغفر الله . .؟ هل يستفزُّك أنّ بدرية من حيّ يسميها الرجال والنساء فيه : قطّة شيرازية «كوربي شيرازي»؟ وقال شاب من الحيّ كان لا يُخفي عشقه : «للعشقِ في وجهك يا بدريةُ تأويلات» . وقال شاب آخر «وكنّا نعرف أنّك مررت من هنا أو هناك من رائحة عطرك ، نتَّبعه فلا يشير إلى جهة قصدك فتهدأ غيرتُنا ، وتنشغل مخيلتنا بمراودة عطرك» . ويوم حاولت بدرية تخفيف هيام أحدهم – خوفا عليه مّما حلّ بفتى خاتون في الحيّ البعيد هناك –

نعتها بالقطة المتوحشة!

كانت بدرية تفيض بالعشق ، تفتحنا على القند والزعفران فيندلع السرد :

«الجدران في حيّنا علامات عشق . كلمات مفرطة في الإيجاز ، يعرف الجميع معناها ، ويبقى للعاشقين سرُّها وسيرتها . إشاراتٌ بالحروف الإنجليزية المتقاربة بعلامات حسابية (M+A) وإلى جوارها(H+H= آشق) وتحتها (F+M) . كلّ إضافة جديدة تُعرف في الحال ، وتبدأ الفتياتُ بحثهن عن أسماء أصحاب الرموز في ما يُشبه الرهان على براعتهن في الكشف . وتتجاوز هذه العلامات الكشف إلى اعتبارها رسائل واضحة لشطب أسماء الحبيبين من قائمة المعجبين و المعجبات! وقد لا تُشطب! لكلّ حرفين قصة تلتذّ الفتيات بسردها مرّات دون ملل . فالساردة عاشقة أيضا وقد يعلق السرد بالسرد ، والسيرة بالسيرة ، فلا يعرف أحدُ سرّ كلّ هذه البهجة ساعة السرد . وقد يحرص العاشقان على إخفاء دقائق ما بينهما ، فيكون للسرّ طعم الغموض . ويكون الحبيب «يَار» وحبيبي «يارم»!

لم تكن عبارات العشق وحدها على الجدران ، فكل ما يحدث في الحي ممّا يُرى وما لا يُرى يكتب على هذه الجدران : «ضرس ذهب موديل ١٩٦٠» . . «ما يحاجونك» . . «ش» . . «تفضل ممد» . . «إلى آيسكريم» . . «محرق وبس» . . «الله أكبر» . . «٦٩ وين؟» . . لكن عبارات العشق ورسائل الغرام الموجزة لها الحظ الأكبر على كل جدار .

وقد يأتي الوشم بسحره الأخضر على أيدي العاشقين . في يد أخي حسين وشم أخضر فيه سيرة عشقه كلّها . سألته مرّة :

- ماذا لو غادرتَ حبيبتك أوغادَرتْك؟ ماذا تفعل بالوشم؟ بحرفها «H» ؟ كيف تنساها وهذا وشمها فيك؟

– ألم يكن هذا الوشم فتنة في يوم من الأيام؟ «قال وعيناه في عيني»

– نعم؟!

– فتنة في السماء قبل الأرض؟!!

– في السماء . . وعندما تغادرك؟!

– تظلُّ الفتنة . يوم صنعتُ الوشم بالغتُ في تعميقه ، فلما شَخَصَ تألمت . قالت : «ضعه بين نهدي أُروِّض ألَمك»

– فَعَلْتَ؟!

– إيه . . فعلتُ . . مثل عاشقة أفغانية تهبُ قندتها لحبيبها ولا تخشى أذان الفجر!

– حسينو . . استحْ على ويهك!!

كنتُ أستفزُّهُ فَيَرْوِي . كأنّ في قلبه المرجان ، وفي شعر رأسه الطويل رائحةُ التفاح ، وحسّ امرأة تفاحة . بعد سبع سنوات تزوجتْ حبيبتُه رجلاً متديِّناً . تحجبتْ بالسواد وانْحجبت . لم يبقَ منها إلا فتنةُ الوَشم ، ورائحةُ التفاح .

هذا شارع العشق «راه عشق» . . .

هنا كلُّ جـدار قلب . هيـئـة القلب بالفـحم الأسـود ، أو بطلاء الأسطوانات الأحمر دلالات حبّ وودّ حتى في أقصر وأضيق أزقة فروع شارع العشق . تتداخل الرسومات والكتابات على الجدران مثلما تتـداخل سِـيَرُ العـشق ، وتسـتـأنس السـيـرة بالسـيـرة . صـور المغنيين والمغنيات على الجدارن أيضاً لا يمسّها إلا جاحدٌ للحبّ! صور مختلفة الحجم والزمن للمغني «داريوش» ، وأخرى للمغني «ستّار» ، تخفف من ذكرويتهما المغنية «گوگوش» التي دخلت أغنيتها «مَن آمَدأم» كلّ بيت في الحيّ ، وحفظها العشّاق والمحبّون . گوگوش بلباس الصوفي الأبيض وعقد خشبي وصوتٌ كلُّه عشق ، وامتلاءٌ بحضور العاشق . . عيناها الواسعتان وشعرها بلون الحنطة ساعة الغروب . . ميلانها واهتزازُ كتفيها في يسرٍ جالسةً متربعةً . . صوتُ الناي الفارسي كأنّه يحتفي بلون الزعفران . أصغي إليها وأترنَّمُ بها وبنغمة من نغمات إخوان الصفا «كلّ نغمة تجعلُ نفوسَ عالمها مُشوّقة إلى ما فوقها» . لا أحد ينسى ذلك .

يتبادلُ المحبونَ أشرطة الغناء ، ويتهادون بالورد والزعفران . كانت الطبعة الوحيدة لكتاب «أغاني داريوش» تتناقل بين المحبين . الذين يعشقون داريوش يُوصفون بالاتزان ، والمكانة ، بينما يعشق صعاليك الحيّ ، والمتمردون ، والمراهقون ، والذين بعثرهم الحبّ أغاني «شهرام» .

في حيّنا تحرصُ كلّ واحدةٍ على حمل ما تسطيع ممّا يُطبخ أو يُعدّ في مناسبات الزواج والرثاء ومأتم النساء من حلوى أو طعام ، أو ماء

الزعفران المُحَلَّى بالقند . ولا حرج في أن يفتح الحبيبُ بابَ بيته فيرى حبيبته تحمل إليه نصيبه من تلك الموائد . ولا حرج في أن تدخل البيت وسط أهله ، أو في وجود إحدى أخوات الحبيب . ولا لوم لو انحسرت العباءة السوداء «الدفه» عن رأس الحبيبة – وهي غالبا ما تنحسر– وأسفر شعر رأسها الأسود الليلي الجميل . وكثيراً ما انتقلت الفتاة من بيت إلى آخر في الأزقة الضيقة سافرة . وقد يلتقي الحبيبان في بيت محايد لصديق أو صديقة . البيوت في حيّنا مفتوحة على بعضها البعض ليدخل مَن يرغب . كأنّ الحيّ بيت . بيوت مليئة بالعشّاق و الشاي والقند .

لا أحدَ يقسُو على القَند ، يجعلونه تحتَ اللسان يبتل بِريق الفَم قبل أن يأتي عليه الشاي الساخن . كلّ فم قندة . لا قبلة دون قند . يحلُّ كلٌّ واحد منهما في الآخر ويسكن فيه . يتداخلان ، يتمازجان ، يتهاضمان ، لا يعرفُ أحدٌ من أيّهما يأتي السكّر . للقبلة هنا طعم القند ، وللشفتين حراسة خزانة سكر الريق . شفاهٌ مبتلة يقظة وليست يقظة . لا أحد يغنِّي وحده ، واللغة تلحظ حتى تمدد الخضاب في أقدام اللواتي يجتزن شارع العشق . كأنّ سيرة العشق سيرة القند ، ولون الشاي حلمة غاضبة .

لسطوح منازل الحيّ عمقٌ يتَّسعُ وحده لرحابة العشّاق . حين تهدأُ الأزقة تنتخبُ السطوحُ ضَجيجها المَهووس بالفتنة حتى غروب الشمس . سطوح تعتني بعشّاقها فلا يَرى أحدٌ منهم إلا شعرَ الرأس ،

والأيدي إذا ارتفعت . وسطوح يعلو سورها الخصر ، وأخرى بلا أسوار . يتنقل العشّاق من سطح إلى آخر . وقد لا يصل العاشق إلى سطحه المُبتغى حتى يمّر بسطوح عدّة . كلّ سطح سِيرٌ من العشق والافتتان ، وقليلٍ من الوَجع . وقد يُهدم منزلٌ خربٌ ، فتتغير خريطة العاشق ، وينتخبُ سطوحاً أخرى ليصلَ إلى حبيبته . يسيرون عليها مثل أشباحٍ شفافةٍ تستعجلُ سرعتها ، لا يراهم إلا مَنْ لَم يفتك العشق به ، ولم تكن يقظته مؤجلة .

ساعة يلتقي العشّاق على السطوح لا يكفّ الحمام عن الطيران ، فلا يعرفون ساعتها لِمَنْ هذا الحمام؟ ولا من أين مطارُه؟ وقيل إن حمام حسن السيد قادر على الوصول إلى هذا الحيّ ، وأنّ عاشقة – كانت تُخفي عشقها لشابٍ في حيّ خاتون – تعرفتْ على حمامة منها من اللمعان المفرط في طوق رقبتها الأخضر . سُمّيت الحمامة سفيرة العشق ، وسمّاها المُبغِضُون في حيّ خاتون سفيرة الشهوة . لا يعرفُ أحدٌ من عشّاق هذا الحيّ طريقاً إلى حيّ خاتون إلا عبر هذه الحمامة . طريقٌ أزرقٌ لا يجتازه إلا جناحٌ يفتتنُ ريشُهُ بلهب النار . آخر ما يترمّد منه وشمٌ طالما امتُحنَ بالتجربة .

لم يكن عبور الأسطح مقتصراً على العاشقين من الذكور! فالرشيقة زهراء لها حصتها في ابتكار جنّة السطوح . كنا نتفق ، نسلي أبويها العجوزين بينما تذرع هي سطوح المنازل سطحاً سطحاً حتى المكان المتفق عليه! كانت تعدنا بأن ترجع في أسرع وقت ممكن لكن

ذلك لم يحدث قط! ولّما افتتن الحبّ بينهما تزوج حبيبها من فتاة أخرى فكادت تجن لولا صحبتنا لها . عشقت آخر فسافر ولم يعد . قيل إنّها تزوجت قبل سنوات ، وإنّ زوجها طردها بعد أن تزوج من خادمتها!

في حيّنا يصيرُ العشقُ عرساً ، وقد يفيضُ العشقُ فيرى الناس العرس دونه . عشقٌ كلُّ لمسة فيه عرس! تطوف النسوة بدعوة الخطبة على البيوت متعطرات يحملنَ (زبيلاً) من خوص النخيل الملون ، فيه حبات هيل «هال» أخضر ، يتدلى من كلّ هيلة ثلاثة خيوط قصيرة : أحمر ، وأخضر ، وذهبي ، سهرت النسوة على إعدادها ليال بقرب الشَاي . ثلاثة ألوان لا تأتي إلاّ في العرس . الأخضر للنمو ، والذهبي للعزّة ، والأحمر للعشق . تخلط النسوة حبات الهيل بالقند في زبيل واحد . يطرقن أبواب بيوت الحيّ باباً باباً فتخرج نساؤه مُرحِّباتٍ مُباركات . وبعد أن تنتهي امرأة من تبليغ الدعوة الشفوية للخطبة ، وتُعرِّفُ بالزوجين ، وبأُسرتهما إن احتاج الأَمر ، تمدّ سيدةُ البيت يدها في الزبيل ، تأخذ ما تسعه قبضتها بالصلوات على محمد وآل محمد .

يهندسُ الرجالُ الساحة لأيامِ العرس بلَذَّة الذكرى ، وبهجة دائرة الرقص .

- «هذا مكان الطبخ . . وهذه دائرة الرقص» قال رجلٌ في العقد الخامس من عمره ، حوله شباب كثيرون مفتوحو الصدور ، ممتلؤون

ببهجة تحضيرات العرس . كلّ شاب له من العرس عرق الزعفران البارد ، والاختيال كلّ الاختيال في التي تحدقّ فيه ملهوفةً عليه مثل غيمة مثقلة بالريق تهبه حُلُماً يفرك زوايا شفتيها ولا يستعجل . ملهوف عليها مثل مرايا عرس لا تدخلها صور الليل . سميتهم أشباح السطوح ، فنعتوني : أنت يا بدرية جنيّة الزعفران!!

يُهيِّئون ترابَ الساحة للرقص مثلما تهيء النسوة مرايا العرس . قال رجل ينذر الشباب بالحيوية : «لا يكون الرقص حتى تلمع ذرات الزجاج في التراب . الزجاج يا أولادي تراب ناله رقص كثير فوهبه كل هذا اللمعان» . جَدَّ الشباب وبالغوا في تسويته حتى صار بحراً ساجياً من تراب . ستكون الساحة كلّها حواس ، وسيكون «الشرفُ كلّه في الحسّ» .

كان الشباب أسرعَ الناس حضوراً في الساحة . الوقتُ عصراً . وُضعت الطبول . . أربعة طبول : طبلان صغيران يصدران نغمة(تِك) ، والآخران كبيران ، يصدران نغمة (دُم) . سيقرع رجل نشط على طبلين : صغير وكبير ، وآخر على الطبلين الآخرين . وسيملأ إيقاع البندري الراقص الحيّ بشهوة الرقص ، ويستفزُّ حواسّ كلِّ الحاضرين . بعد تثبيت الطبول الأربعة يُعاد تسوية التراب حولهما ، وينتخبُ الرجالُ منهم ثلّةً مأخوذينَ بالرقص . يصعد عازف الصرناي على منزل مكشوف السطح ، ويبدأ بعزف انفرادي ينادي به الناس . يبدأ الطبَّالان تهيئة عضلاتهما وحسّهما بالقرع على الطبول فيما يُعرف بـ

«التسخين»! تسخين الأيدي وحواس الناس معاً . تخرجُ مجموعة من النساء في ملابس زاهيات ، مثقلات بالذهب ، فاتنات بالبياض ، ممتلآت ، مدلوعات الجيوب ، نهودهن البيضاء خزائن قند ، سرّحن شعورهن السوداء الجميلة بتسريحة «قَصّة الأسد» ، تُغَطِّي كلٌّ واحدة النصف الخَلفي من شعرها بخِمار طويل ، وتتركُ شعر المقدّمة سافراً ، مفروقاً بدقّة متناهية ، في يد كلٍّ واحدةٍ منهنّ دِسْمَال «منديل» من قماش شفّاف ناعم ، مختلف الألوان . يسمون هذه الرقصة «دسمال بازي» ، والرقص الدِسمالي .

يتقدّم عازفُ الصرناي إلى وسط الساحة إلى جواره راقص ماهر يُدعى خصيصاً مع فرقة العزف . سيكونان مركز الدسمالي ، تحيطهما النسوة في شكل حلقة ، ومن خلفهنّ الرجال في حلقة أوسع . يتجه الجميع بوجوههم نحو مركز الدسمالي بينما يبدأ عازف الصرناي ، يملأ فمه بالهواء ويبرز خديه في انتفاخ مهيب ، وتشتدّ أوداجه . هو سيّد الصوت ، وبه يبدأ الرقص وبه ينتهي . وعلى الرغم من عظم الصرناي ، وعظم (التاكو) المعدني إلا أنّ العازف ينسى كلّ ذلك عندما يصغي الناس ، ويبدأ إيقاع الطبول متناغماً مع صوت الصرناي ، وتبدأ النسوة تتحركن حركة خفيفة واثقة ، وهنّ يلوحن بالدساميل ، تشغل ألوانها السماء ، وتترك أقدامهن أثراً فوق أثر أقدام الرجال مثل حلزونات شَامة القمر! لكلّ أثر على التراب رسالة ، ورسائل العيون أكثر امتلاءً وفيضاً .

ترفع النسوةُ أيديهن عالياً يُلوِّحن بالدساميل : أحمر . . أخضر . . أصفر . . بنفسجي . . لكلّ لون سيرة في العيون . تهتزّ أساور الذهب في معاصمهن ، تتصادم ، كأنّها تصوّت على الدساميل . تزيد حيوية الرقص قليلاً قليلاً ويزيد حماس النظارة حتى إذا وصل الرقص ذروته تقافزت النسوة ، وزاد تلويحهن بالدساميل ، وتوافقت حركة أرجلهن بحركتها فلا يكاد يعرف التراب أيَّ أثر تركنه فيه ، وأيَّ لهب أشعلنه في ذرّات زجاجه . تشتعل النار عندما تحتكّ قدمان مختلفتان لا خشبتان!

عَارٌ على التي لا تجيد الرقص! كأنّه حيّ الرقص! أليس قريبا من البحر وزرقته ورقصات أمواجه؟! مرّة أرسل شابٌ فتاةً رسولةً إلى أختي نادرة تخبرها أنّه معجب بها ، بينما وقف بعيداً يراقب ردة فعلها ، فلما أشارت أختي بيدها «لا»! قال للرسولة : «أصلا هي لا تجيد الرقص في الأعراس»! فدخل أختي من الغمّ الكثير . قالت : «ظلمني والله»! . . أختي التي تقلدها فتيات الحيّ في لباسها ومشيتها ، وتسريحة شعرها ، طريقة كلامها ، ومحط أنظار فتيات الأعراس ، حتى قيل إنّها ممثلة إنجليزية . . أختي لا تجيدُ الرقص! أختي التي علَّمت فتيات المدرسة كيف يكتبن رسالة حبّ على أوراق دفاتر المدرسة! كيف يكون السطر على الخط الأزرق فقط؟ كيف تكون التلميذة عاشقة؟ أين يخبئن الرسالة بعد كتابتها؟ كيفية إيصالها إلى الحبيب؟ كيف تضع الفتاة شيئاً منها في الرسالة؟ وكيف تجعل رائحة

المريول الأزرق فيها؟ . . أختي لا تجيد الرقص!

يستمرُّ العرس أسبوعاً ، وتسكن فرقة العزف في بيت العرس . وغالباً ما يكون سطح المنزل مكان نومها وراحتها ، يُؤنسها آخرون من الحيّ بالأحاديث حتى الصباح . وقد ينام أطفال رجال الفرقة قبل منتصف الليل فيُحملون إلى السطح . كأنّ النوم في بيت العرس عرس!

يفيضُ الحيّ بالعشق إلى جيرانه ، وتطيرُ به الأخبار فيما تنتظر النسوة عرساً جديداً ، ورقصاً يملأ الفضاء بالمناديل . لا قند ولا زعفران ولا رقص حتى تنظر عائلة الفتاة في تاريخ الفتى العاشق المتقدّم لخطبة فتاتها ، ووضعه الاقتصادي ، ومكانة العائلة ، وأصولها . وسيكون حظّه منها قليلاً لو كان بيرمي ، لا يحبّ الحرب ، حتى وصف رجال البيرمية بالجبن!

لم يستطع الرادود «المُنشد الحسيني» علي مرتضى الزواج من فتاة عشقه (هاجر) ، لأنّ عائلته تمتهن الحلاقة «دلاك»! بقي الرادود علي دلاك يتردد على بيت هاجر في الشهر مرّات يحمل وصمة مهنة أجداده ، وهي تقف إلى جانبه وتقويه وتستفزّ عشقه لها ، وهو يُجِدُّ في عبور سطوح المنازل نهاية كلّ عصر حتى نالت جدارن أسوار سطوح المنازل من ركبتيه ، ويديه . قالت أشباح السطوح : «لم نَرَ عاشقاً مثله يقفزُ خفيفاً من سطح إلى آخر ، ولم نَرَ يائساً مثله ، كلّما أحسّ بالفقد ازداد ارتطاماً بأسوار جدارن السطوح» كانا يلتقيان كثيراً

على نية الافتراق ، وهو أخو العناد حتى ناله يأس وفقد كثير .

فلمّا افترقا أحسّ بأوجاع في ركبتيه!

علي دلاك أعذبُ الشبابً صوتاً في الحيّ كلّه ، مُتمكّنٌ في ألحان وأطوار الإنشاد الحسيني الكربلائي حتى لقّبه رجال الحيّ بـ «بلبل الحيّ» . أقدرهم على ترجيع الكلام وتنغيم القصائد الحسينية . لا أحدَ يفوقه من رواديد الحيّ حتى (مُلاّيات) مآتم النساء . عندما يُنشد يضع كربلاء كلّها في عيني كل مصغ ، فيترحمون على جدّه الرادود الحاج مرتضى دلاك . وعندما يعلن أنّه سينشد قصائد على طريقة «واحد» لا يتخلّف إلا القليل . وهي من أصعب طُرق الإنشاد ، يقول الرادود مجموعة أبيات من القصيدة دفعة واحدة ، وفي نَفَس واحد دون أن يختل الإيقاع حتى آخر النفس . كادت الطريقة تسمى باسمه لولا ظلّ جدّه فيها . يذهب إليه الشخص فيُصاب بفجيعة الماء .

لم يعد علي مرتضى يُنشد منذ انطفاء جذوة الشبح فيه . توقف حتى عن زيارة مآتم وحسينيات الحيّ . عرف الناس قصة عشقه فتعاطفوا معه لكنّهم لم يغفروا له انقطاعه عن الحسينيات ، وغياب صوته ، ونعتته جماعة بالـ(. . .) ، وتحسّر آخرون على ليالي النواح به . وفي يوم استقيظ علي دلاك مشلولاً غير قادر على المَشي ، فقيل إنّ ما حلّ بهً عقاب إلهي لتخليه وتخلّفه عن نصرة قافلة الحقّ . أثّر ذلك فيه كثيراً فصار لا يتخلّف عن حضور الحسينيات صبح مساء في كرسيه المتحرك . يدخل بدموعه ويغادر بحمرة شريفة في عينيه .

خُصّصت له في الحُسينيات والمآتم زاوية سُميت باسمه : زاوية بلبل الحيّ .

كان علي دلاك يحلم بالدسمالي ، ووعد أصدقاءه بأن يغني في عرسه بنَفَسٍ لم يعرفه الحيّ من قبل . لم يبق له إلا سيرة شبح غير قادر على الاختفاء ، وصوت يرتجف كلّما حاول الترنم بقصيدة قديمة!

لخطبة النساء في حيّنا طقوس الزعفران والنار . كلاهما لهب ، كلاهما شهيّ ، كلاهما حلم أقوى من أيّ تجربة . الزعفران يضيء شفتيّ الناشفتين ، والنار في كلّ جزءٍ من جَسدي قبل أن تستعيرها النجوم . لهبٌ ماجنٌ ، لعوبٌ ، سرُّ كلِّ التحولات ، لا يطفؤها ماءٌ حتى يشتعل . عندما أرى اللهب أبدأ في عضّ شفتي السفلى ، ولا أجيد الكفّ إلا نادراً . لا أعرف لمَ السفلى بالتحديد ، لكنّي أشعر إنّها أوّل شيء تستفزه النار في جسدي ، وأوّل شيء يشعل النار فيه . ليس ثمّة مكابرة تشتعل إلاّ بالنار ، وليس ثمّة ذلّ إلا وهي فيه! يسمونه حيّ العشق ، وأسمّيه أنا حيّ النار .

كنتُ صغيرةً مع صديقاتٍ ثلاثٍ نترصّد قافلةً من نساءِ العرس يحملن صواني ، مغطاةً بالقماش الأخضر ، مبتهجاتٍ يُغنين ، متجهاتٍ نحو بيت عروس في الحيّ . كان غناؤهن جميلاً ، وثيباهن زاهيات ، بينهن تتبادلُ طفلاتهن الأمكنة ، ويمرحن بخيوط زجاجية بيضاء من حلوى «شعر البنات» . تحمل النسوةُ في هذه الصواني أشكالاً من الحلويات ، والعسلَ ، والقندَ ، والزعفرانَ ، وملاعقَ ذهبية

صغيرة ، ومشموماً ، ووردَ الياسمين ، والرازقي ، والمحمدي ، والورد المجفف ، والبيض المسلوق الملوّن ، سهرتِ النسوةُ على تلوينه بالأخضر فقط ، وأصنافاً من الفواكه ، والمكسّرات المحمّصة والمملحة . يُلونَّ الجَوز وبعض المكسّرات بالذهبي والفضي . حبتا قند كبيرتان تغطيان بقماش أخضر ، ستمسكهما فتاتان غير متزوجتين كلما تقدم المأذون في قراءة الخطبة تقومان بحكّ القندتين على رأس العروس . مثل قندة في حضرة قند . ومرآة كبيرة يسمونها مرآة الحظ «آينه بَخْت» ستُوضع أمام العروس تنظرُ إلى بختها فيها ، وتقرأ «إنّا فتحنا لك فتحاً مبيناً» . تنفتح لها المرآة صورة العاشق الذي صار زوجاً فَتُخْفِي ابتسامةَ حياء . تأخذُ أواني الحناء المعجون شكلاً مهيباً على بساط السفرة الأخضر . كلُّ إناء حناء في وسطه شمعة مشتعلة ، بينما رُسِمَت مثلثات بالفولك المُلون حول قاعدة الشمعة . قد تغفرُ النسوةُ المتجمعاتُ حول السفرة كلّ شيء إلا خروجهن من غير بيضةٍ خضراء!

تقصدُ قافلةُ النساء بيتَ العروس بصواني العرس تتخللها صَوانٍ أخرى عليها شموعٌ مُشتعلةٌ يتمايل لهبها بمَيل النسوة . كان اللهب قِبلتي . ثمّة شيءٌ في اللهب يشير إلى وجهي فيعتريني ما يعتري خاتون . كأنّ اللهب حبٌّ مباغت . يقتربُ اللهب لكنّه لا يُحرق . ما سِرّ كلّ هذا الاحتفاء بالنار؟ ألأنّي كنت كتومةً بين والديّ في صغري؟ لا يشعل ناراً إلا كتوم! أم لأنّي كنتُ أتغيّر بسرعة؟ هل أنا كائن ناري جئتُ من بذرة تُشبه شرارة النار في كلّ شيء؟ لا أعرف ،

فثمّة ما يقاوم التفسير داخلي . كل الذي أعرفه أنني لا أقاوم مشهداً كهذا ، ولا صورَ ميلان لهب كهذا الميلان الناعم . ماذا سنفعل؟

أشرتُ في صمت إلى صديقاتي الثَلاث أن استعدن للهجوم المَرِح على قافلة العرس والقند واللهب . سنختلط أولاً بأطفالهن ، ونمسكُ بأطراف ثيابهن ، ثمّ . . ثمّ نُوْخزُ النسوةَ في خصورهن بأصابعنا . كنَّا المرحَ كلّه واللهب كله ، والقند يصيرُ سكراً أسود كلما اقترب من اللهب . . يصير عسلاً . وخزنا النسوة وهنَّ يغنين فتصايحن وسقطتِ الصَواني واحدةً تلو الأخرى . علا الصراخُ واختلط بضحكاتنا الماكرة وصارت كلُّ واحدة منهنّ تلوم الأخرى ، وطفلاتهن واجمات يحسبن أنَّهن السبب! وعندما نعود إلى البيت نجد قصة سقوط القافلة حاضرة عند أمّي ، بينما تُخفي أختي نادرة ابتسامة العارف الخبيث!!

صرنا قُطّاع طرق قوافل العرس ، اللهب والقند غايتنا . فعلنا ذلك مراراً وقلّما فشلنا في بعثرة القافلة . ينتهي كلّ شيء ويظلّ اللهبُ في عينيّ وشماً مبالغاً فيه .

لم يكن أحد من بيتنا يصلي إلا أمّي وحدها ، وصلاة البقيةِ عشق وجمال! تسأل عن الصلاة فلا يكترث أحدٌ ، فلما ملّت الاستجابة توقفت . لم تعد تسأل لكنّها لم تيأس!

- «أبوكم لا يهتم إلا بدراستكم ، ولا يسأل عن أيّ شيء آخر . لا يسأل عن صلواتكم . يشتكي الناس في الحيّ من لباسكم ، ولا يهتم . . لم يُعطِ أبٌ لأبنائه وبناته كلّ هذه الحرية» قالت أمّي ذلك

وفي وجهها علامةُ غضب سرعان ما ستضحك عندما أقترب منها وأقبلها . تحاولُ النيلَ مِنّي فتأخذ الابتسامة بناصية الغضب .

مَرْيُول المدرسة الأزرق الفاتن ضيّق تموَّج قماشه لشدّة ضيقه . . أزرق متموّج تحته جسد أجّلته . . أجلتُ قندته لفتنة النورس الشَهم . استدعتني مديرة المدرسة مرّات احتجاجاً على كلّ فتنة أثيرها بين الطالبات . هددتني مرّات بنقلي إلى مدرسة أخرى .

– «مريولج فتنة يا بدرية . . الطالبات يقلدونج في كل شي حتى المَشي . . ما تستحين؟!»

أنظرُ في وجهها –مكتوفةَ اليدين– ولا أحوّل عيني عنه ، غير مكترثة فلا تقوى على ذلك . لا تستطيع أن تقول : جسدك الفارسي يا بدرية فتنة!! سأنال منها يوماً!

للمديرة معي يوم ، ولمشرفة المدرسة في الطابور الصباحي يوم مع أختي نادرة . تصيحُ في ميكرفون الطابور بعد الاصطفاف : «نادرة اصطفّي على جنب خارج الطابور بسرعة» . تخرجُ أختي وقد زيّنتْ جواربها القصيرة بريش ناعم ، ووردات صغيرة ملونة من صنع يدها ، فلا تعود إلى مكانها حتى ترضى المديرة عن شكل أزيائها ، وحذائها المختلف دائماً ، الشاذ عن أحذية الطالبات ، وعن تسريحة شعرها . . آه تسريحة شعرها ، تبدأ المديرة منها وتنتهي! وهي نادراً ما تَرضى عن نادرة!

فساتيني كلُّها ضيّقة ، وتنوراتي كلّها قصيرة وملابسي الداخلية

مزيّنة أختارها بعناية فائقة ، وأشتريها على نيةِ ما سَيُرى لا ما سَيَغيبُ ويَختفي! لكلّ منّا في البيت فلسفته في شراء الملابس ، وأختي نادرة ترى أن لحظة اختيار لون القماش يأتي الجسد ورغباتٌ كثيرة في خواطرنا ، ويأتي الذين نحبّهم ، والذين نَعرفهم وعيونهم علينا ضوء . مرّة اشترتْ قميصاً أبيضَ من قماش المَلْمَل الناعم الشَفَّاف . استعرضَتْهُ في البيت فاشتهى الجميع النظر إلى قندة جسدها تحت المَلْمَل الشفاف . نهدان عاجيان متصلبان بالكاد يلمح الناظر اهتزازهما لولا اهتزاز المَلْمَل إجلالاً لنهضتهما . كانت تمشي مثل عارية غدت لها الشمسُ حِلية!

ساعةَ النظرِ إلى الملابس الجَديدة نتحلّقُ في فضاء غرفة نوم إحدانا ، بينما تقوم صاحبة الملابس باستعراضها أمامنا قطعةً قطعةً ، وهي جادةٌ في مشيتها ، تنتظر رأياً جاداً ، ونحن مثل رواد حانة بصرية ننتظر دخول مجانين جدد كل لحظة!! كلّ شيءٍ يُعرض حتى الملابس الداخلية . لمحتْ أختي نادرة الفكرة فأسستْ أوّل دار عرض أزياء من باريس حضرته نساء كثيرات مِمَّنْ لا تَخْفَى أسماؤُهن مثلما تخفى سِيرهن! كانت تعرفُ حضارة الأزياء وتُحدثنا عن تاريخ القماش ، وسرّ الموضة ، وبيوت الأزياء في العالم . كانت تقول : «ما دمنا قريبين من البحر ، ونسمع صوت أمواجه فلا بدّ أن تكون أزياؤنا منه . . من فتنة زرقة مائه . . من أساطيره . . ممّا يهبه للنساء في أفراحهن وأحزانهن . . من فرحة الطفل بأصغر موجاته وسرطاناته . . من حلزوناته . . ممّا

يبقى من ماء في حفر صغيرة ساعة الجزر . . من شامة القمر فوق مائه ليلاً (قلْ لي أحبّكِ أكنْ حلزوناً لا يرجعُ إلى المَاء) . . من كتابات الحلزونات على رماله الرطبة . . من ألوان نباتاته . . من لون ملحه . . من لهج الشعراء به . . من سيرته . . من كلّ قارب «لاَفَ» على مائه . . من الفتيات الصغيرات يُقلدن الصبية في صيد السَرطانات الصَغيرة . . كلُّ ذلك يحضرُ ساعةَ انتخابِ الأزياء وتصميمها» . . كنّا نُصْغِي لأُخْتي نادرة ، ونرى بها إلى الأزياء ما لا تراه فتياتُ الحيِّ . تسردُ فلا نَسْهَو . عَرَفْنَا أنَّ الأزياءَ لَيستْ سِتْراً !!

بعد أن غادرنا حفلة عرس جميلة أخذتنا نادرة إلى ساحل البحر ، قريباً من البيت . كانت أمواجه لا ترى إلا عندما تبدأ تتلاشى :

- نراها في آخرها أليس ذلك فكرة لفستان يمكنني أن أسميه «الموجة»؟!

قالت نادرة ذلك وفتحتِ الأزياءَ والعُرس والكلام كلّه على البحر :

- لِمَ كلّ هذا العُري؟ أليستِ العَروسُ وجهاً؟! العروسُ هي عينا العروس . . لماذا هذا العُري إذن؟ الأزياء نرى بها إلى أنوثة المرأة لا إلى عُريها!

– ولكنّه عرس! (قالت أختي الصغيرة)

– لأنّه عرس . . من غير المناسب أن ينشغل الناس بالنظر إلى

نهدي العروس الأبيضين ، وزنديها اللامعين بدلاً من وجهها وأزيائها . صار الناس لا يذكرون من ليلة العرس إلا نهدي العروس وزنديها . أين وجه العروس؟ أين أثر شعورها؟ أين ابتسامتها وبهجتها؟ أين أزياؤها؟ هي عروس فلا تحتاج أكثر من ذلك! أين العروس اليوم؟ أليست شيئا مشوّهاً؟! لِمَ كل هذا المكياج الصارخ يكاد وجهها يحترق؟!!

ضحكنا جميعاً لكلامها الأخير ، ضَربتْ أختي الصغيرة على كتفها مازحةً وقالت :

- هذا قليل ممّا تَشي به الأزياء . . قليل جداً . .

جلسنا على تراب الساحل البارد . . تبدو إضاءة خافتة جداً من غرفة أمّي . .

– سيرةُ الأزياء سيرة الإنسان لا تحكي جسده فحسب ، بل كلّ شيء فيه حتى انفعالاته التي قد لا نراها . تمضي الأجساد وتظل الأزياء معلقة في مخابئها بما بقي فيها من رائحة عطر أو جسد ، أو ضمّة حبيب ، أو ذكرى رقصة جميلة . . أو خوف العاشق المتلفت من شيء لا يعرفه! . . أو ألم في أسفل صدر عاشقة مثل الذي جرى على خاتون . . أو . . أو خبر مُؤلم فتكون هي كلّ ذلك مجتمعاً . . الأزياء ليست ستراً ، وأنوثة المرأة ليست جسداً . . . يعني . . كوكو شانيل (١٨٨٣–١٩١٧) جاءت بـ «الثوب الأسود الصغير» هكذا يسمونه لبساطته ، ولا يحتاج إلى إكسسوارات ، وكلّه مصنوع من قطعة واحدة فقط . . هكذا بلا قيود وبلا زيادات ولا صعوبات في

اللبس . زي يجعل المرأة خفيفة الحركة . . وهو مع ذلك قريب من ثوب المرأة الأبيض الشعبي عندنا . . خفيف ومغرٍ وفاتن ومناسب لاقتصاد الناس هنا وله حضوره وسيرته لكنه ما تطور . الدعوة لبساطة الأزياء ، ورفض مقولة «أكثر يعني أكثر» في الأزياء ، وإحلال مقولة «أقل يعني أكثر» مكانها قد يأتي بمعارضة شديدة ، وقد تتدخل فيها الحكومات أحياناً !! . . إيه . . ملبوساتنا لم تتغيّر ولم تتطور! كل تصميم لا يستمد قوته من لحظة تصميمه وابتكاره ، بل من استمرار نموه وتطوره . . تصميم الأزياء فنّ يشبه الرسم والنحت والتصوير الفوتوغرافي والموسيقى وهو يتداخل معها جميعاً ، ويقترض منها الكثير . . وما لم يتغيّر يتوقف! . .

– كأنّ الحيوية في بيتنا من حيوية الأزياء؟! (قلتُ وقد بدتِ الدهشةُ في عيني نادرة)

– إيه عمري . . لأنّ الأزياء لم تتغير كثيراً عندنا لذا ما تغيرنا!! الاستعمال والتغيير هما كيمياء الأزياء . . بهما نتفاعل مع الناس ومع المصمم أيضا . وقد يطوّر اللابس العادي قطعة أزياء ؛ لأنّه مَنْ سيستعملها . . بعد كلّ ذلك هل الأزياء ستر فقط؟!!

كنّا نُصْغِي إلى نادرة كأنّها قادرة على جعل صوت أمواج البحر ، ونوارسه في أيّ ثوب أو فستان تصممه . . وقادرة على صبغ الأزياء بلمعان آخر الموجة وهي تتلاشى ، وأنّ كلّ شيء نتأمله قادر على أن يُومئ لنا بحضوره الجميل في ملبوساتنا ، وأزيائنا .

هكذا كنّا نَحـيـا في بيـتنا . . اتجـاهات كـثـيـرة في الذَوق والأيدلوجيـات والأزياء والأكل والحـوار والعـشق ، والمزاح و . . لكنّ الجـمـال والتـغـيُّر والخـروج على الحيّ ، يجـمع كلّ ذلك ، وهي كلّها مَاكينة هذه الحيوية .

- «يا عبّاس . . ها قد ذوّبت لكَ العسلَ في الشَاي ، وعِطري في نَفَسِك ، هل تعرفُ كيف يكون العِشق بالشَّم؟»

١٤

غَريبُ آشنا

سـيـرةُ خـاتون ، وحـمـامـةٌ واحـدة ، وألوان بيـارقِ مـواكـب العـزاء ، وصداقاتٌ غيرُ مُعلنة ، ورائحة نار جديدة لا أعرف هيئة لهبها ، كلّ ذلك يخطرُ من حـيّك إلى حـيّنا ياعـبّـاس دونَ حـاسـة حـرس الليل . كأنّها لا تسفر إلا في حيّنا .

أختي مَسِي مُولعـةٌ بِسيرة خاتون ، كانت تقـول : «خـاتون منّا»! وتهيجُ بها السـيرة كلّما احتشد سرد صديقات خاتون من حولها ، وغربة فتاها الوسيم . لا يمرّ يوم لا نسمع صوت الساحرة گوگوش خافتاً من غرفتها . فتحتُ مرّةً عليها الباب دون استئذان فوجدتُها تُحدِّث نغم الموسيقى :

– «إن كنتَ لا تُريدني ، ولا ترغبُ في فتحِ الباب فإنّي مقيمةٌ في العَتبة . . أتسلّى بسيرة العَتبة»

هائمةٌ مثل الخَلية من السفن تسير من غير ملاّح . . «تَلوف» . .

أغلقتُ الباب . . كأنّها لم ترني ولم يشغلها عن صاحب الباب شيء ، ولا حتى تغيّر الضوء في غرفتها ، واستيقاظ الأحمر . ابتعدتُ خطوات فأتى صوت گوگوش يترنّم بشعر اردلان سرفراز :

«مِن مدنِ الغُربة يا حبيبي فجأةً أتيت
على حصانٍ أبيض أتيت
من دروبٍ مليئةٍ بالتُّراب والغُبار أتيت
جئتَ من أجلي أنا حبيبتك
وبعد كلِّ هذا الانتظار تحمل الربيع أتيت
ما أحلى رؤيتك ، وما أحلى لقاءك
ما أروعَ أن أزيلَ الغبار عن جسدك
أيّها الغريبُ أحبّك فاقترب
خُذني معك إلى ديار الحِكايات
ضمَّ يديي إلى يديك
ما أجملَ أن نعيشَ تحت سقفٍ واحد
سأنتظرُكَ . . سأنتظرُ رجوعك إليَّ
فسِجني معك حُريتي»

نافذةُ غرفتها مفتوحة على طلّة شباب الحيّ . لم يحدث قط أن مرّ شابٌ ولم يصوّب وجهه نحو نافذتها ، نحو لونها الأحمر ، وهي لا تبخلُ على بعث القند في دماء وجوههم ، والسُّكّر في العينين .

يمرّ موكبُ العزاء أسفل نافذتها فيصطفي المشمومُ في يديها أكثرَ

شباب الحيّ وسامةً ويكون له نثار أخضر . ينتهي الموكبُ وتبدأ حكاية المُصطفى . وكان الشبابُ يُعوّلون على انتخابها لأوسمهم . ينتهي الموكبُ فيشربون الشَاي جلوساً على الأرض ، بينما يقفُ المُصطفى يَحكي لهم كيفَ هبطَ المشمومُ على زنديه العاريين . يُخرج من جيبه غُصناً رطباً ، يقول إنّ رائحة يد مَسِي فيه .

- «كنتُ أرى ثلاث نساء فارسيات محجّبات ، لا يرى الناظر إليهن غير القليل من وجوههن البيضاء ، وحجابهن من قطعتي قماش ، يترددن على الأحياء في شهري محرم وصفر في كلّ حيّ واحدة ، تزور مآتم النساء ، وتتحدث عن المرأة ودورها قبل وبعد الإسلام ، وكيف أنّ الله كرّمها ، وفضّلها على نساء العالمين . تحدّثن عن دورها (الرسالي) ، والبطولي في الحروب ، والنضال ضد الظلم . كنتُ لأوّل مرّة أسمع كلمة (رسالي)!! كيف يكون هذا الدور (الرسالي)؟! كلّ ذلك يحدث بعد انتهاء ملاية المأتم من مراثيها الحسينية .

كانتْ سيرةُ النضال الكربلائي تستأثر بخطبتها الحماسية جداً . ومنهن عرفتُ أيضاً مصطلح (المرأة الزينبية)!! كان حماس خطيبة حيّنا يرجّني ويُرجفني كلمّا لوّحت بقبضة يدها!! ولأوّل مرّة سمعت هتافات (الله أكبر) بصوت نساء المأتم جميعهن!! كأنّ الفارسياتِ يُهيِّئن نساءَ حيّنا لمعركة وشيكة ، وكأنّني أتصلبُ ، وأتحجَّرُ ، وأستجمعُ كراهيتي ، وأتنمّرُ ، وأمتلئُ بأصواتِ تلك المعركة!! لم يعد

ثمّة فراغ لضحكة في داخلي ، فالذين تحت الأنقاض لا فراغَ لديهم! كدتُ أغادر لولا أنّ الطريقَ إلى عتبة الباب محتشدٌ بحمرة وجوه كلّها وجهٌ واحد ، كأنّها الله أكبر . . خطابها ماكينة سحر! أين أنا؟!

غادرت الفارسيات ثمّ عادت واحدة منهن لتستقرّ في أكبر مأتم النساء . كانت ترافق رجل دين يتردد على الحيّ ، قال لي : «غطّي شعر رأسك ، وطولي كم قميصك» فلم أعره انتباهاً!

أعادت الخطيبةُ الحديث عن المرأة ونضالها ، وعن واجبات الفتاة في سنّ التكليف . ، واجباتها في الدماء الثلاثة : الحيض والاستحاضة والنفاس ، وشكل المرأة المحجبة ، حتى لون الجوارب ينبغي أن يكون أسود غير شفاف ، ولباسها يجب أن لا يصف ولا يشفّ . أن يكون فضفاضاً يخفي شكل تقاسيم الجسد .

صارت النساء تتهادى بالحُجُب ، والجوارب السود ، ودكاكين بيعها لا تهدأ من الزائرات! وخطيبتنا تهدي لكل امرأة حاضرة وغير حاضرة كتيبات عن الحجاب والمرأة ، ثمّ ظهرت صور فوتوغرافية كبيرة لرجل دين مهيب بعمامة سوداء ، حولها هالة بيضاء ، قيل إنّه سيملأ المكان ثورةً ضد الظلم ، والفساد ، أعلى صورته كُتِبَتْ آيةُ (وفضل الله المجاهدين على القاعدين أجراً عظيماً) ، وأنّه من نسل النبي ، وأنّ اسمه الإمام ، وأنّ معه رجال كزبر الحديد ، لا يهابون الموت ، وأنّ ثورته وشيكة!

بدأت منشورات التأييد تنتشر ، ومجلات لم أرها من قبل ، كان

أهمها مجلة (الشهيد) التي لم تكن سوى ثمان صفحات تطبع في لندن ، ويشارك بعض أبناء حينا في كتابتها وطباعتها! وإلى جوارها «صوت المستضعفين» . كانت الأولى ثقافية تهتم ببلد الزعفران ، والثانية ثورية لا ترى فيها غير حيّك ، تُوزع بحذر شديد وتُخزّن في مخازن أكثر سريّة . تحجّبت النساءُ ، وأصاب بعضهن الحرجُ مثل أختي فاطمة التي لم يكن لديها إلا ما يصفُ أو ما يشفّ من الثياب!!

تغيّرتِ الكتابةُ على جدران الحيّ! بدت عبارات العشق في شارع العشق مصدر خجل! لم تتغيّر ، ولم نرَ إلى جوارها أيّ جديد!! تزاحمت وتزاجرت الكتابات عليه! . . «الحجاب عفاف» . . «إمام رهبر» . . «الله أكبر» . . «النصر للإسلام» . . «الموت للطغاة» . . صور الإمام تلصق على صور المغنين! كنا نصبح فلا نرى من تلك الكتابات ولا الصور شيئاً!! أضحت الجدران سبورات الليل ، كلُّ كتابة لا تبقى أكثر من يومٍ واحد!! كلّما ابتعدَ الجدارُ عن الشارع العام امتلأ بسَواد الكتابة . كلٍ كتابة تأخذك إلى كتابة أخرى حتى أنك تنسى متعة تداخل الأزقة ، وتنسى مفاجآتها غير المتوقعة! وسرعان ما صارتْ صورُ الإمام تُطبع مباشرةً على الجدران بآلية جديدة لم نرها من قبل . صور بدون ملامح لكنّ شكلها لا يأخذ الرائي إلى غير الإمام .

أخي عبد الرضا الشابُ الصغير المدلل في بيتنا ، أصرّ على الذهاب إلى الحجّ مع أبي ، ولم يزلْ تلميذاً في المدرسة . لأوّل مرّة نرى شعر ذقن رضا فسميناه «حجّي»! . كانتِ اللحية الأُولى في

بيتنا . تشاجر مرّةً مع أبي فغابَ عن البيت! لم نعتد على غيابه وهو وردة ليلنا وصبحنا . أين ضحكتك يا رضا يا قندة شباب البيت؟ في الفجر وجدناه نائماً في مسجد صغير على أطراف الحيّ!! رضا الذي كان يمشي صدره قبله ، مثل الحمامة الشمسي ، منتشٍ ، ناهض الجسد كأنّه الدنيا حين تُقبل . . رضا بدا خاضع الطرف ، خاشع الجسد ، منطوي الأطراف! وكنّا كلما اشتهينا رؤية فتوة القند نظرنا إليه .

صار يخرج كثيراً من البيت ، ويتأخّر في العودة ، ويستيقظ كلّ فجر . كأنّ الذي به أمنية أمّي! وأحاديثنا لا تطربه ، وجلساتنا لا . . . . إيه . . . اتصاله بنا قلّ ، فلم ننشغل به كثيراً . وفي فجر يوم داهمت شرطة الشغب بيتنا تفتّش عنه وعن أشياء لا نعرفها! أدركنا يومها أن الذي بأخي رضا ليس أمراً صغيراً ، وليس مجرد شكل خارجي . كأننا غير قادرين على تقويم سيرته ، وما تُخفي سريرته! فُجِعَتْ أمّي بقرار نفيه إلى خارج البلاد ، وانهارت أختي نادرة مرّات . ما الذي يأتينا من بلد الزعفران؟!

أصابت أخي مجيد تغيّرات مفاجأة!! صار شيوعياً مُتشدّداً ، يحبّ جيفارا ، ويهوى سماع مارسيل خليفة ويترنم بأغانيه ، ويحفظها ، أطلق لحيته أيضا . لكنّه لا يدفن كتبه في الرمل كما يفعل رضا!! كان يهوى الخروج ليلاً مع جماعته ، وقد زينت صورة جيفارا أقمصة بعضهم . وعندما يكون اللقاء خاصاً تكثرُ صور جيفارا . رأيته

مـهـتـمـاً بنشـرة تدعى(٥ مـارس) ، التي لا تُوزع إلاّ لـيـلاً تحت أبواب البيوت ، ولا يُستثنى من ذلك حتى بيوت الفقراء الخشبية ، أو تلك المبنيـة من سـعف النخيـل! ولمجيـد أصـدقـاء له يوزعـون نشـرة(الفـجـر) الأسبـوعيـة ، يقـول مجيـد : إنّ للشيـوعيين نصـيبـاً كـبيراً في الثورة ، وسيكون لهم نصيب أكبر في أحداث كبيرة قادمة في حيّنا!!

مـا الذي حـدث في العـالـم ولم يأتِ منه طيفٌ أو لونٌ إلى هذا الحيّ؟ لا شيء إلا أن تتراكم الأحداث وتنتهي بما يشبـه النتيـجـة!! أيضا لا يحدث هذا هنا ، فعند ذروة أيّة موضة أو اتجاه يبدأ اتجاه آخر ليس فيه من سابقه شيء! لا شيء يؤسس لشيء!!!

حمتْ شوارع حيّنا ، قيل إنّ النسر هبط! زاد انقسام الناس حول الثورة ، وطافت مسيرة مؤيدة شوارع وأزقة الحي . لم أرتح لرؤية مجموعة من النسـاء في ذيل المسيـرة ، فلم أتمالك نفسي فوقـفت معـارضـةً ، موبخةً للواتي أعرفهن!! لمحتُ أختي الصغيرة بينهن فأعددت لها لحين رجوعها لوماً على قدر الحرقة التي بي منها عليها . . . إلى أين تتجه هذه العائلة؟! ثمّة أشياء غريبة تجيئ!

- «هذه الثورة فتنة» قال عمدة حيّنا الحاج قمبر .

- «لا تكون ثورة حتى تكون فتنة» قال أبي .

- «إيه . . مـا يحـدث في بلد الزعـفـران يأتي منه لونه البـاهت! وربّما لونه الهارب! في مطلع الخمسينيات هرب (نَظّام) إلى حيّنا خوفاً من انقلاب فاشل فكانت الشيوعية!! واليوم سبحان بلد الزعفران تأتي

هنا لتظل ألوانها هناك بعيدة عنا ، وسالمة! كلّ ما يهرب منها يأتي ينام وينعم هنا حتى فلول أجهزة السافاك» قال الحاج قمبر محبطاً .

– «نحن حيّ حماة الألوان» قال أبي قبل أن ينهي آخر رشفة في استكانة الشاي .

– «لا أعرف ما شكل الموضة القادمة إلى حيّنا حيّ الموضات و الصَرَعات !!» قال الحاج قمبر .

رأيتُ الشباب يراقبون بيوت وشقق فلول أجهزة السافاك وينقلون تقارير ساخنة إلى بلد الزعفران مجاناً! وعندما انتقل بعضهم إلى (لندن) سافر أحد الشاب للنيل منهم هناك لكن مهمته لم تنجح! ومنذ ذلك اليوم لم يره أحد!!

كان من المفترض أن تعرضَ قناة التلفزيون الرابعة والوحيدة ، الفيلم المصري «الكرنك» في هذا اليوم ، لكن انتصار الثورة جعل عرضه حرجاً ، فأُجّل!

فُتحت الأبواب على الأبواب ، والسطوح أشرعة المتنقل الشَهم! قنابل مسيلة للدموع تغلق العينين ، وتفتح ألف باب ، وألف سطح . كل البيوت مباحة للمتظاهرين المؤيدين . لا تقرع الباب ، ولا تتنحنح ، انتخب أقرب الأبواب ، وأسرع السطوح . لم تعد السطوح للعشق ، لكن جمرتها لم تنطفئ . كانت جسر أمان . وقد يدخلُ الحبيب بيت حبيبته ، ينالُ نظرة رضاً ، أو شدّ أزرٍ .

لم يكن شيخ الحيّ مع الثورة ، وكان لا يُخْفي رأيه فيها ، ولا في

قادتها . انقسم الناس حوله مثلما انقسموا حول الثورة! لم يعد الشيخ قادراً على دخول مأتم الحيّ ، ولا الصلاة جماعة في مسجده . اعتبر الشيخ مناهضاً للصحوة الجديدة . صار منبوذاً معطّلا إلا من زيارات يسيرة إلى مجلسه ، الذي كان عامراً . عرفت شيئا جديداً سموه «مقاطعة»!

انتشرت حلقاتُ تعليم الدين في كل مكان : التقليد ، الطهارة ، العبادات ، المعاملات ، النحو ، المنطق ، الأصول ، وغيرها ، وبدأ بعض الشباب يتركون مدارسهم ليلتحقوا بهذه الدروس . اتخذتْ بعض حلقات التدريس شكلاً منظماً ، تُعدّ الشباب ليصبحوا رجالَ دين جدداً ، تكون دراساتهم وفق منهج الحوزات العلمية . كان الأمر ميسراً للجميع .

تخصصت دكاكين في شؤون المرأة المتحجبة ، تبيع الحجب غير الملونة : أسود ، وأبيض ، وبيج . كان للأسود حظ وافر ، مثلما كان للجورب الأسود حظّه! وعند الحديث عن صفات الفتاة يسأل الناس : هل هي متحجبة؟!

لقيت المكتبات إقبالاً كبيراً جداً لم تره من قبل . كان كتاب (الشهيد والثورة) أكثر الكتب انتشاراً ، خصوصاً بعد إبعاد مؤلفه السيد فادي!! وكتاب (نحن بشر أم بقر) لأحمد القارئ ، وكتاب (مكارم الأخلاق) للشيخ الطبرسي ، وكتاب (نهج الكفاح) للسيد فادي ، وكتاب (كشف الارتياب في أتباع محمد عبد الوهاب) للسيد

محسن الأمين . صارت كتيبات إسلامية ترسل مجاناً من (دار التوحيد) على عناوين البيوت والمؤسسات . ما يباع تحت الطاولة أكثر! يكفي أن يقول صاحب المكتبة عن كتاب ما «إنه ممنوع» ليزداد طلبه ، وترتفع قيمته ، وينتشر اسم مؤلفه!! كانت لعبة اقتصادية رابحة ما زالت فعّالة!

وحده أخي حسين لم يتغيّر في هذا البيت من الذكور . لم ينتمِ للثورة ، ولا لشيء! ولم ينل منها ولا من رموزها . لكن مكان جلوسه تغيّر وفق الخريطة الجديدة للحيّ! لأخي حسين وأصدقائه الممر الضيق بين بيتنا والمأتم ، لا تمرّ فتاة دون أن يرشقونها بتعليق قد يلتصق بها ، فلا تُعرف إلا به!! كانت بعض التعليقات منظّمة!! مرّت فتاة لا تزيل الشعر عن وجهها -مثل الكثير من الفتيات اللواتي يرفضن إزالة شعر الوجه قبل خطبتهن- فلما اقتربت أكثر . . أكثر . . رمى لها أحدهم ثلاثة أمواس حلاقة!! وضحكوا طبعاً!! جماعة أخي رضا -الذين يفتقدونه ، ويتمنون وجوده- يجلسون بعيداً عن ممرّات الحيّ الحيويّة!! أما الشاب «ستيف أتلو» وجماعته «اللوفرية» فلهم مكانهم الخاص أيضاً ، قريباً من زاوية المقبرة . وحدها جماعة أخي مجيد تتجمع في المقاهي والبساتين ، وتروق لها الرحلاتُ المختلطة!

هذه الفرق يجمعها موكب عزاء واحد ، لا يحيدون عنه ، ولا يتأخرون ، إلا جماعة أخي مجيد! «عزوز إِي» أبرز ، وأقدم الشخصيات في جماعة أخي حسين . أعطي عصابة حمراء يربطها

على جبـينه في الموكب ، مكتـوب عليـهـا «السـلام على المخـدرات الهاشميات» فاجتهد كثيراً حتى يزيل كلمة «الهاشميات» منها!! قيل إنه فعلها ولم يعترض عليه أحد!!

قد تحدث انتقالات وتحولات بين هذه الجماعات ، فبعد شهرين فقط من انتصار الثورة تحول جوزيف قائد الفرقة الموسيقية عن جماعة (ستيف أتلو) إلى جماعة أخي رضا . سيصبح لاحقا من أشهر القادة السياسيين في الحيّ! كان أحلى صوت في فرقته ، له القدرة على جعل جميع البنات يرقصن! مرّة غنّى على صدور النساء في زواج جارتي «نسيم» فلم يلتفت سواي! سألته بعد الحفل عنها فقال : «أليس الصدر قندة النساء» ؟! ابتسمت له فقال : «لو رأيتُ هذه الابتسامة لما توقفت عن الغناء» بعدها صار لا يحوّل عينيه عنّي كلما حضرت عرساً أو حفلاً يحييه ، وينتقي لي من أغاني الحبّ أحلى ما لديه ، وأرقّ! صرت حديث الفتيات : «جاءت مسي . .» و «جلست مسي . .» و «ماذا ستلبس مسي الليلة»؟

أُبعدت المرأة الخطيبة عن البلاد بعد أن صارت في كثيرات! وأبعد السيد فادي في ٢٧ أغسطس ١٩٧٩م ، وقد ترك أشباهه يهندسون استقبال كل صادرات الثورة! ويحمونها بشغل الحكومات عنها بهم!! لكي تحمي ثورةً ما صَدِّرها لأعدائك! للسيد فادي فريقان : الأوّل المكشوف ، ويتكون من الذين اسقبلوه ، واسكنوه في حيّنا حتى ظنوا أنّهم كلّ شيء!! والثاني المَخفي وعليه عبء العمل الرسالي

وكان من أحياء متفرقة ، فيه تجري أمور قد لا يعرفها أحد من تنظيمه!! ولم يعرف الفريق الأوّل عن وجود الفريق الثاني شيئاً حتى الحدث الكبير في أغسطس ١٩٨١م .

لم تتوقف المحاضرات الدينية ، و الحماسية ، التي يتخللها توزيع منشورات سياسية محظورة تصدر غالباً عن «الجبهة الإسلامية» . كل المنشورات بالآلة الكاتبة ، وبحروف صغيرة جداً ، فالورقة الواحدة لا تتسع لكلّ هذا المداد من الحماس . كنت أكره المنشورات لأنّها تشعلني وتوجهني وتجعل عقلي في لجّة الجماهير! نكون عقلاً واحداً لا ينتبه من عنفه إلا لحظة الخلوة . . نكونُ سلوكاً جمعياً غريزياً يمتهن العنف ، ولا شيء غيره! كنت أدخل لأرى وأخرج لأعيش! خشيت أن أنفصل تماماً فأكون من النخبة . . أكون من الأعداء! أو أتصل تماماً فأكون من الجماهير ، أقبل كلَّ شيء دون تفكير! أليست الجماهير هي الجماهير مهما كان اتجاهها؟ ليس ثمّة جماهير بدون قائد!

– «لا تخافوا ، يصيّر الله لكل ثورة مَنْ يسرقها» قال الحاج قمبر متفائلاً!

«بعد ماذا؟ بعد انكسار عزتنا . . هيبتنا . . كنّا الأفضل في كلّ شيء هنا» قال أبي منكسراً .

لم نعد نجتمع نعرض الأزياء في بيتنا . لم تعد الأزياء إلا ستراً ، إلا لوناً واحداً ، قطعةً واحدةً محايدةً تُشبه الكفن . . تُشبه الغياب . . تُشبه الغُربة «كأنّك ترى الحيّ لأوّل مرّة يا عبّاس وتبتهج! أنا لم أعد

قادرة على رؤية الحيّ!! صار حيّنا يُشبه حيّك!! لذا صرت ترى؟! لم أعد أمتلك أيّ قوة غير أنّي سأصبح ساحة تاريخ تتصارع عليها القوى . . أليس تاريخ شيء ما «تعاقب القوى التي تستولي عليه»؟ تعاقب الموضات عليه!! الموضات قوىً!!

يا حيُّ انقلبْ إن كنتَ حيّاً !!

لمحتُ دهشتك ، ولا شيءَ غيرَ دهشتك . دهشةً مستطيلةً لا يأتي بعدها شيءٌ!

يا عباس . . الإنسان هو ما بعد الدهشة ، وما قبل القبلة!

كتبت بين يوليو ٢٠٠٣

وبين يوليو ٢٠٠٥

الفهرس

الاهداء	5
قُبْلةُ المَـاء	7
أُلفةُ الحَمَــام	13
سِيرةُ خَاتــــُـون	17
جَنّةُ الحَواس	25
ألوانُ البَزّاز	33
بَيْتُ المَاء والقَمر	41
مُتَمكِّنٌ في تَلْوِيْنِه	63
نَعْـتٌ	87
شَامةُ القَمر	121
قَنـْدَةُ فَارسيـة	125
زِينَةُ الجَناح	131
الذينَ يَحمِلُونَ القَند	139
جِنيّةُ الزعَفران	155
غَريبُ آشنا	177